



لاعب الشطرنج

تأليف

ستيفان زوثايج

و قصة

طونيوكروجر

تأليف

توماس مان

ترجمة يحيى حقي



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد السبوني

الإسكندرية

قصتان من الادب الالماني

اللعبة الشطرنج

تأليف : ستيفان زفايج

طونيو كروجر

تأليف : توماس مان

ترجمة : يحيى حقي

اهداء الكتاب

الى صديقى واخوى

الدكتور نعيم عطية

والاستاذ سمير وهبى

لما أسعدانى به من محبة ووداد . .

يحيى حقو

مقدمة

عما قليل ستتهدى اليك من قصص الغرب العريقة اثنتان لا واحدة فحسب يا عم ، كنت قد ترجمتهما منفصلتين ، الاولى قديما والثانية حديثا ، فكان عطاء كل منهما قاصرا على قيمتها الذاتية غير متجاوز لاطارها ، فلما أريد لهما أن يجتمعا بين جلدتين اذا بهذا العطاء يفيض ويتضاعف ، فقد أصبح هذا الكتاب بفضلهما - وان بغير سعى منهما - صالحا للتعريف ببعض ملامح الألب الألمانية المعاصر ، متمثلا في اثنتين من أكبر أئمتته وأوسعهم شهرة عالمية هما استيفان زفايج ونوماس مان ، صالحا أيضا للتعريف ببعض خصائص شكل فريد من اشكال الفن القصصي هو أطول من القصة القصيرة وأقصر من الرواية الطويلة ، نسميه أحيانا القصوصة وبعض الناس يحبون هذا الشكل لأن الحكاية فيه تكون محبوبكة ، ملمومة ، مثذبة ، لا يبقى منها الا الجوهر فيتلاها اشعاعه ، ومن عجب أنه غير شائع عندنا ، ولست أحب أن يقاس الفن بمقياس مادي ، كالحجم مثلا ، في القصة واللوحة والقصيدة ، انه مقياس خاطيء ومضال ، العبرة هي في التناسق والالتحام بين الشكل والمضمون ، ينشأ منهما نبض خاص بكل شكل ، حينئذ تدب الحياة في العمل الفني ويتسم بالصدق والقدرة على الاتناع . وينشأ نبض الأصوصة من توفيقها في الجمع بين الاستيعاب بلا ففضضة والاجمال بدون تضحية بعناصر جوهرية لا حبا في هذا التوفيق

لاعب الشطرنج ٨

فحسب ، بل لأن الموضوع يستلزمه اذا كان المطلب هو ارضاء الفن والنزول على حكمه ، ولماذا أقحم رأيا لى عليك ، سأخلى بينك وبين هذا الكتاب لترى بنفسك نبض الأصوصة وخاصة في « لاعب الشطرنج » من تأليف استيفان زفايج . أما الآن فدعنى أحدثك عنه قليلا .

لا أحسب ان ناشئا في الأدب يصادق استيفان زفايج الا أحس لتوه أنه وقع أسيرا في قبضته ، لا مفر له من أن يتأثر به ، سعيه بعد ذلك أن ينحرر منه ليهتدى الى سليقته ، لا بد له أن يقرأ كل حرف كسبه ثم يقول هل من مزيد ، اننى انكلم عن تجربة ، هكذا كان حالى ، لا أخجل من الاعتراف بأننى كتبت قصة (اليوسطجى) في شبابه وقت أن وقعت أسيرا في قبضة زفايج حين صادفته في طريقى ، أسرنى كما يأسر كل قارئ ولا ريب بصفة غالبة على جميع مؤلفاته . سواء في القصة أو السيرة أو التاريخ أو الرحلات ، هى الانتقاد والجيشان ، انتقاد يحيل الحديد الغليظ الى كتلة شفاقة من لهب ، وجيشان كالنافورة المتوثبة التى لا ينضب قبضها ولا يضعف اندفاعها ، متلاحقة ، بعضها آخذ من بعض ، وهى في كل الأوقات من قوام واحد ، مذهلة قدرته على الجمع بين الاستمرار والتجدد ، بأى خطو سار ستشعر أنك تلهث جريا في تتبعه ، تمنى أن ينتهى مشوار تمنى الا ينتهى ، فاذا فرغت منه أحسست بشعب تحسب أنك لن تعانى بعده من جوع مهها صمت ، أحسست أيضا — صدقتى — بشيء من التنميل يمس أعصابك بألم لذيد ، ألم تكن تجرى طول المشوار ؟ تحس بشيء من الخجل والغیظ لأنك تعريت ، كأن يدا قد نفضت عنك

لاعب النطرنج ١

ثيابك واندس منها ألف اصبع الى دخيلك تفتش عن أسرارها ونكشها ، بل تعرفك بها ، فقد كنت تجهلها لأنها مطوية في ظلام جوفك ، ولكن التفتيش تم على وهج كتلة اللهب الشفافة ، أصبحت العواطف في قلبك قادرة على بلوغ نهايتها القصوى ، الحب الى ذروة الوله والهيام ، والنفور الى غاية من الكراهية والبغضاء ، تنفجر هذه العواطف لأن مشرط زفايج قد مزق ركودها في قلبك ، يمنحك متعة الشبع عند النهاية ، ولكنه يحرمك ايضا من متعة تأمل كل فقرة على حدثها لأنك تجرى وتلهث ، كأن كل فقرة نفخة متجددة في الأتون لكي يزداد التهابا ، وهذه هي أهم سمات العمل الفني ، الفقرات لا بد أن يكون لها نوعها وعبرتها استقلالاً ، ولكنها نذوب في الكل حتى نكاد لا ننتبه لها، ومع ذلك اذا حذفت واحدة منها أثار البناء أجمعه .

وسط هذا الانتقاد تنصهر الالفاظ وتتحول اللغة من العموم الى الخصوص ، وتخاطبك بلسانين : الانصاح والايحاء ، المباشرة والكنائية ، ، الحق والاسنعاره ، بل يتحقق لها المسنجيل ، الجمع بين النقيضين ، طابع الألف والحرية ، كأن كل الناس هكذا يتكلمون ، وطابع الرق والاستعباد لأنك تعدلها أو قل نشوهها لكي تقى بغرض نفعى مستبد في سياق لا يطابق الواقع ويُرغم أنه الواقع ، حوار أبطال القصة سادق ولكن لا أحد في الدنيا يتكلم مثلهم في حال كحالهم، لا بد من الاختزال الجبرى والبتر بلا حسرة للء قوالب محددة يستقل بها العمل الفنى ، وشرط الايبين طابع من طابع ، الفن لغة تنسيك صراحتها أنها شفرة سحرية ترمز — كما في الاسطورة — الى سر الباطن

لاعب الشطرنج ١٠

من تحت الظاهر وتوحد الكائنات تحت ستار من الشتات هكذا لغة الفن ، لغة زفايج ، لا يسمح انتقادها لبصمات البلاغة وقواعد النحو أن تجلجل فتصم الأذن ، أو أن ترشق العين ففقؤها ، الانحام يحقق من وراء ظهر أدوات الوصل والعطف كأنها بالرغم منها لا يفضلها ، والسلام متبادل بين الأسماء والأفعال والحروف .

وليس هذا محسب ، أن أسر اسنيفان زفايج^٥ لقارئه راجع أيضا الى نزعته الانسانية الجارفة ، لا ينقص من قدر الانسان عنده أنه ضعيف ، هو يعيره ولكن لا يسخر منه ، لا أعرف مثله كاتباً عظيماً خبيراً بأسرار النفوس وأقنعة الخداع ، برأ قلبه تمام البرء من السخرية ، ما أقوى اغراء السخرية لكاتب يتأمل البشر من عل لا للترفع عنهم بل لاستيعابهم ، ومن عجب أن السخرية رغم زعمها أنها وليدة حس مرهف غص الذكاء تنم بالعكس عن الجفاف أو تهدد به ، سلم منها زفايج حتى في خريف عمره ، مطلبه هو فهم الانسان لا الحكم عليه ، انه يتركه كما تناوله ، كما التقى به ويودعه ! ريشة في مهب الريح نصارع وحدها مصرها ، هذا الكاتب في حديقة الأدب الالماني شجرة حور متوتبة ، نافورة من خشب ، سامقة ، جذع رشيق يدق كلما علت ، فلا ننبت الأغصان الا قرب تاجها الشامخ وهي قليلة ، كأنما جعلت ليفرد عليها شرع مشناق الى بحار مجهولة ، هيهات للآثم الضال أن يجد تحتها ظلاً أو نفحة من أمل ، انها ترمته بعين فاحصة ثم تتركه في الهجير لقدره ، هيا به الى الظل الوارف تحت شجرة سنديان ، غليظة الجذع ، حدادحة ، رحابة الصدر عندها احب من ارتفاع الهامة ، فاحشة التراء بأغصان ملتقة ، ذاتية ، دائرة ، كأنها

لاعب الشطرنج ١١

قبة محراب ، توحى بالسكينة والحكمة ، هي شجرة جوته ، التقى بفاوست وهو هاو الى الجحيم ولكنه لم يتركه الا بعد أن فتح له باب الامل في رحمة الله وغفرانه اذا صدق ندمه وصحت توبته ، في رسالتها وهي برد وسلام ونفج للروح .. بعد سنين عديدة سيبقى جوته فذا كما كان ، على حين قد يظهر لزفايج أعداد كثيرين .

١ هرب استيفان زفايج في قصصه من رافعى لواء الطقوس والفلسفة والحكمة والتاريخ ليلوذ بحضن الفن وحده ، هو خلاصة الجميع ولكن لا يستبعده أحد ، هو الكلمة الأخيرة التي كانت على ألسنتهم كلهم ولامر ما لم ينطقوا بها ، لا عجب حين نطق بها الفن ان كان لها جرس الرقى والتعاويد ، قابلة لأكثر من تفسير ، متار حيرة وخلاف ، غير مقنعة هي أيضا ، أعرفت الآن لمن الكلمة الأخيرة ؟ لمن كانت له الكلمة الأولى ..

* * *

الآن يؤنبني ضميري ، لأننى تحدثت عن الشبع الذى يحس به قارئ ستيفان زفايج وأنا أكتم شكاً في صدرى لابد لى من أن صارحك به . يثير هذا الشك سؤالاً : هل في الشبع كما في الجوع ما هو جاذب ؟ والا فلماذا يعاودنى الآن هذا الشعور الذى يتخلف عندى كلما فرغت من قراءة كتاب لهذا الساحر الأسر ؟ أتعرف الشهاب الذى يلعب فجأة بالليل ، لا ترى حياته الا لحظة يهوى قفزا كالأشئوق الى حتفه متقدماً متوهجا كأنه شمس تجمعت في شرارة واحدة فاجرة ، تحسب أن أذنك تسمع أزيزها ، جميع النجوم البراقة بدت بغتة معتمة ، نخطف أنفاسك فتكاد تشهق من فرط انبهارك

لاعب الشطرنج ١٢

به ولكن كل عمره لا يزيد عن طرفة جفن ، فاذا اردت البصر وجدت هذا الطارئ المقنم قد انكشط عن صفحة السماء . لآثر له ولو شبهة من دخان شاحب ، عادت النجوم العيقة الى بريقها الثابت المنصل كأنها ليس الأهم عنده هو طول العمر والآثر بل البرهنة يخيل على براعته الخارقة في جذب الأنظار والادهاش ولو للحظة عابرة يدفع عمره كله ثمنا لها ، والغلو في استعراض البراعة افتتانا بالنفس يلقي جزاء لا مفر منه : ان يكون الأثر كالشبع الكاذب ، أخشى ان يكون هذا هو حال الساحر الأسر استنقان زفايج . ما أسرع استيلاءه عليك واستبداده بك ، ما أسرع انعتاقتك منه لحظة ان يتوارى عنك ، لا أنكر ان نفسى همت بى ان أعيد قراءة كتاب له كنت انبهرت له أشد الانهار ابان خضوعى له ، انها تعاد قراءة كاتب يكون كالنجوم المتأنية الخاشع همسها اليك بمعنى الجمال والانسلاك فى الملكوت ، كان مددها من ندى أم ترضع طفلها ، لا تقصد اشباع جوعه ، بل تمنحه غذاء يسرى فى كيانه ويبيته صحيحا على مهل .

أكون خلة اليهود ابان الشنات هذه الشهوة العارمة لاسعراض براعة على الادهاش نبز طاقة بقية الناس ، نلمسا لكبرياء يدحضون بها اذلالهم الذى جروه هم على انفسهم . شطحات كتيرة فى الفنون التشكيلية والادب المسرحى مرجعها اليهم بدافع من هذه الشهوة التى انقلبت بعد الصهيونية الى داء يشبه جنون العظمة ، بل تجد هذه الشهوة على تعلبقات فرويد ، وقد يفسر بها كثرهم بين العازفين الفرتيوز وقتلهم بين الملحنين المبدعين العظام ، فالفرتيوز ابداع تمثال بجسد اعلان البراعة الفذة التى تتعمد جذب انبهارك . فاذا كان

لاعب الشطرنج ١٣

استيفان زفايج بين العازفين هو الفيرتيوز فهل لأنه بين مصاييح السماء هو الشهاب .

يضاف الى رصيد زفايج قدرته الواضحة على المناورة والتنبع ، انها مظهر هيامه بالكشف وظمئه للمعرفة ، ما أن يبدو له طرف خيط حتى يطبق عليه بيد صائد فانك وحنون معا على الفريسة المسكينة ، ويظل يجذبه باصرار ورفق ، محاذرا أن ينفلت أو ينقطع أو يلتوى ، الى أن يصل مهما طال المدى الى خبيثة البكرة التي أطلقته ، تراه في أوج قدرته لا عند العقد التي نصادفه وتوهم ضخامتها أنها عسيرة مع أنها سهلة ، منتقشة لأنها هائفة ، بل عند العقد الصغيرة كراس الديوس ، لا يبين منها ظهر من بطن ، مبتور منها اللسان والأذرع والسيقان ان لم تسعفه أنامله في فكها لم يتركها بل استعان عليها بأظافره ، بأسنانه ، ومن هنا نحس أن أسلوبه لا يلتهم السرد فحسب بل ينهشه نهش الغول ، هكذا يصل الى قرار النفوس فيكتشف سرائرها ، وكشف سرائر النفوس هو أول شيء بشوقه ، لا هم له غيره ، انه لا يعيش الا له ، ان انقطع عنه باخ ورذل ، بهذه المتابعة الظمأى للمعرفة قام استيفان زفايج في « لاعب الشطرنج » بتشريحين ، في الأول كسر جمجمة هذا الفتى الجلف الغبى الخام المعتم الذى لأعمل لجسده الا أن يحجب الضوء دون أن ينبعث منه شعاع واحد يصافح به الكون والناس فيدل على يقظة انسانيته ، كيف ولماذا ومن أين تأتي له أن تتلألا في مخه الصدى موهبة واحدة فحسب هي موهبة لعب الشطرنج ، فيصبح على رقعته بطل العالم المنتصر في كل موقعة ، ان ما هو سر مخ الانسان وكيف يعمل وهل تترايط أو لا تترايط قنواته ، ما هو سر الذكاء ،

لاعب الشطرنج ١٤

أمن الجائز أن ينحصر ويتخصص في بؤرة صغيرة في هذا المخ ومن حولها خلاء تام ، عن طريق جمجمة لاعب الشطرنج ؟ يريد زفايج أن يطل ونحن معه على مخ الإنسان عامة ، ان سره يحيره ويشوقه ويتحداه . .
التشريح الثاني لنفس لا لمخ ، نفس رجل متمدن مثقف متصل بالعالم أوثق اتصاله ، فعال ومنفعل ، مؤثر ومتأثر ، يريد زفايج أن يعرف التحولات البشعة التي تحدث لهذه النفس حين يحكم على صاحبها بالحبس الانفرادي في زنزانة ضيقة ، ليس بها الا طاقة صغيرة عالية ينفذ منها نور أقرع بلا مرئيات فهو والظلام سواء ، حتى الأصوات محجوبة عنها ، ليس فيها صحيفة أو كتاب أو ورقة أو قلم ، ولا زائر ، حتى الحارس يظهر دون أن يتكلم ، كل يوم كالأمس والغد ، كل لحظة كالسابقة واللاحقة ، أصبح والأشياء المحيطة به ، الفراش والمنضدة والصحف — من شدة الفه بها خليطا واحدا لا تدرى أهى من الأحياء أم هو من الجماد ، سترى دبيب التحطم والانهيار — قل الجنون — الى هذه النفس خطوة خطوة ، تحولات مرعبة ، ليست نفسية فحسب بل بيولوجية أيضا ، فأسر مساحة الزنزانة لقدمين — طولا وعرضا — سيظل عالقا بهما حتى بعد اطلاق سراحه ، قد اقمنا زفايج أن أقسى تعذيب للإنسان هو الحبس الانفرادي ، كل وسائل محاكم التفتيش بالنسبة اليه رحمة .

جمع زفايج في أقصوصته بين لاعب الشطرنج ونزبل الزنزانة بينيان هيكلها بالتقاء المنفصلين ومشاركة المفردين كأنهما أيرنا تريكو تصنعان معا وكل منهما مستقلة نسيجا يتوالى نموه غرزة غرزة حتى يكتمل ، يصعب أن تفرق في عمل الأبرتين بين التوازي والتداخل

لاعب الشطرنج ١٥

وبينهما « ولس » لا ينقطع ، وهذا مثل فذ لبراعة زفايج في صناعة القصة وجبكها وتفصيلها ونركيها وسوقها ونموها المطرد الى غايتها المقصودة على اتم وجه بحيث تستحيل الاضافة أو الحذف .

وأود أن أخبرك هنا للدلالة على قيمة هذه الأقصوصة وارتفاعها الى مرتبة النماذج أو الكلاسيكيات في الفن القصصي أن صحيفة (الموند) الفرنسية — جلييلة القدر — خرجت عن تقاليد الراسخة في ابناء نشر قصة مسلسل على صفحاتها اليومية وقدمت لقرائها « لاعب الشطرنج » مسلسل في أواخر صيف سنة ١٩٧٢ ، حقا انها ركبت موجة الاهتمام بمباراة الشطرنج الدولية بين بوبى فيشر الأمريكى وموريس سناسكى الروسى في مدينة لاكافيك ، ولكن لولا قيمة هذه الأقصوصة ورغبة الموند أن ترفع بفضلها اهتمام قرائها بهذه المباراة من مستوى نوادى هواة الشطرنج الى مستوى حضارى ونقائى رفيع ، لما ظهرت على صفحاتها سلسلة ..

لا أود أن أطيل عليك بسرد سيرة زفايج واحصاء لعماله العديدة ، ما أسهل أن تجد هذا كله في أحد المراجع لكن لا بد لى هنا أن أقول لك أن زفايج يهودى ، لم يخف عنا ديابنته على خلاف أندريه موروا الذى لم نعرف أنه أندريه هرزوج الا بعد أن كتب سيرته الذاتية . وزفايج رغم ديابنته — ربما بسبب ديابنته — يزهو بأنه منتم الى حضارة غرب أوروبا المسيحية ، مؤمن بكل تقاليدها فلما رأى هذه التقاليد تتهاوى تحت ضربات هتلر وموسوليني حكم بأن هذه الحضارة قد أفلست وأن حياته هو قد أفلست أيضا ، كل شيء اذن زائف ، فلم يبق له الا أن يقتل نفسه فكان انتحاره آخر مأساة يؤلفها .

لاعب الشطرنج ١٦

وحيث ننتقل الآن من استيفان زفايج الى توماس مان،
من لاعب الشطرنج الى طونيو كروجر فاننا رغم وحدة
الشكل ننتقل من الضد الى الضد ، من الانتقاد والجيشان
الى الأناة والتأمل ، من نعمة الأنس بالبشر سواسبة
الى لعنة الاعتزاز بالتفرد والشذوذ . من لهفة الجائع
الى تأنق الشبع ولكن ليس من الأفضل أن نؤجل هذا
الكلام لنجعله مقدمة للاقتصاص الثانية نجدها بعد أن
نفرغ من لاعب الشطرنج .



لاعب الشطرنج



ساد الهرج والمرج كالعادة قبيل الإبحار على ظهر السفينة الكبيرة التي ترمع الاقلاع في منتصف الليل من نيويورك الى بيونس ايرس . وتوالت وفود الركاب يصعدون الى السفينة يحيط بهم حشد من الأصدقاء ، وأخذ سعاة مكتب البرقيات وقد مالت الكاسكيت على أذانهم . . يصيحون بأسماء عبر الصالونات ، واختلطت شبيالة الحقاتب بحملة باقات الزهور ، وشرعت جموع من الصبية بدافع من حب الاستطلاع تستكشف السفينة طلوعا ونزولا ، كل هذا والفرقة الموسيقية تعزف الحانها كأنما لاتبالي بشيء .

التجأت للنجاة قليلا من الضجة والزحام الى المشي العلوى المعد لنزهة الركاب ، وشغلنى حديث مع صديق لى ، فاذا بوميض نور بتألق بالقرب منا مرتين أو ثلاثا . لا ريب انها آلات فوتوغرافية مصوبة نحو راكب ذى مقام لتصويره على عجل قبل السفر ، فالتفت صديقى نحوها وابتسم وقال :

— سترافقكم فى السفينة شخصية فذة .

ولما رأى نظرتى لانتم عن الفهم أضاف موضحا :
— معكم سيركو زينتوفيك البطل العالمى فى لعبة الشطرنج ، لقد عبر الولايات المتحدة من الشرق الى الغرب وفاز فى كل المباريات ، وهاهو ذا يسافر الآن الى الأرجنتين للظفر بأمجادا أخرى .

(1) نشر نصها الاصلى بالالمانية اول مرة سنة ١٩٤٣ فى مدينة

اسك هولم عن دار برمان فيشر .

لاعب الشطرنج ٢٠

تذكرت حينئذ خبر هذا الشاب وعجائب سيرته الدهشة ، وزودني صديقي — لأنه أكثر منى قراءة للصحف — بطائفة من النوار التي تروى عنه فازددت به علما .

بلغ زينتوفيك منذ سنة تقريبا مرتبة أشهر أئمة لعبة الشطرنج مثل البكين ، وكابابلانكا ، وتارتا كوبر ، ولاسكار ، وييجو لجوبوف ، لم تبقى عند أحد منهم حيلة تخفى عليه ، ومنذ أن لعت موهبته الخارقة المبكرة في مباريات نيويورك سنة ١٩٢٢ لم ير الناس فتى مغمورا مثله ينجح في تسليط أسطع الأضواء على هذه اللعبة وأبطالها ، ذلك أن مواهبه العقلية لم تكن قط تبشر بمستقبل باهر ، وسرت الشائعات بأن هذا البطل عاجز عن ان يكتب جملة واحدة حتى بلغته دون خطأ في قواعد الاملاء ، وقال عنه منافس له في سورة من الحنق : انه جمع الجهل كله .

ولد زينتوفيك لأب بائس فقير من سلالة الصقالبة ، كان يعمل نوتيا في سفينة شراعية تلتزم نهر الدانوب فصدمتها ذات لية سفينة بخارية محملة بالقمح وأغرقتها، وكان الصبى حين ذاق الينم قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، فاحتضنه قسيس القرية وبذل عن طيبة قلب وبأمانة غاية الجهد في أن يعيد على هذا الصبى الخامل الصموت دروسه التي تلقى عليه في المدرسة ، ولكن هذه المحاولات باءت بالافخاق ، يحنى ميركو جبهته الفسيحة على سطور سبق شرحها له أكثر من مائة مرة ، ويظل يحملق فيها بعين خالية من الفهم ، بل انه بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل لايعد الا على أصابعه ، لا يقرأ صحيفة أو كتابا الا بمشقة بالغة ، وما كان لأحد

لامب الشطرنج ٢١

أن يتهمه بأنه لا يبذل غاية جهده ، كل أمر يتلقاه يؤديه بروح طيبة ، كحمل الماء وقطع الخشب والعمل في الحقل وتنظيف المطبخ ، وبعبارة موجزة ينجز بعناية كل عمل يكلف به ، وأن أداءه ببطء يثير الغيظ .

ولسكن الطبع الذي أغم القسيس طيب القلب من تلميذه العجيب كان بالأخص عجزه المطلق عن الاهتمام بشيء ما ، فكان لايقوم بأى عمل من تلقاء نفسه ، لا يوجه أبدا سؤالا ، لا يلعب مع رفقاءه ، فما بكأ دينتهى من عمل يتولاه حتى يتخذ له مكانا في حجرة النوم ، ينطق منظره بغياب الذهن وغموضه شأن منظر البهم السائمة ، لايلقى باله أبدا الى شيء يحدث أمامه . فاذا جاء الليل جلس قسيس القرية مع الضابط صديقه يلعب الشطرنج كعادته ثلاثة أدوار ، فكان الصبى حينئذ يقرب إليها جمته الشقراء وتيستر له على رقعة الشطرنج نظيرة ساهمة كأنما أثقل الكرى أجفانه ، وحدث ذات ليلة والرجلان مستغرقان في اللعب أن نم صليل أجراس يقترب بسرعة عن مقدم عربة زحافة على الثلج ، ثم مالبث أن دخل مندمعا فلاح قد غطى الثلج قبعته وناشد القسيس أن يصحبه ليؤدي طقوس الغفران الأخيرة لأمه العجوز لأنها تحتضر ، فلم يتأخر القسيس عن الخروج معه .

وبقى زميله الضابط وأمامه كوب من الجعة لم يتم شربه فأشعل غليونه وشرع يعالج وضع قدميه في حذائه الثقيل ، تهيأ للخروج فاذا به يلحظ فجأة كيف أن نظرة ميركو بقيت ثابتة بأصرار على الرقعة التي بدأ عليها اللعب ثم توقف . فقال له مازحا :

— هيا ، أتحب أن تتم الدور معى ؟

لاعب الشطرنج ٢٢

ذلك انه كان واثقا من أن هذا الصبي الخامل لا يحسن نقل قطعة واحدة ولو كانت بيدقا وفقا لاصول اللعب .
رفع الصبي رأسه بتهيب وأوماً اليه بالقبول ، واحتل مقعد القسيس فلم تمض أربع عشرة حركة حتى خسر الضابط الدور ، وأيقن ان هزيمته ليست عن اهمال منه ، فلعب دورا آخر فاذا به يخسره أيضا .
ولما عاد القسيس وعلم الخبر صاح قائلا :
— يالها من معجزة ، لقد نطق لعمرى حمار النبي بلعام .

ثم مضى يشرح لصديقه — وهو أقل منه علما بالعهد القديم — كيف حدثت معجزة منذ ألفى سنة حين نطق حمار النبي بلعام فجأة بكلام كله حكمة .

وبالرغم من أن الليل كان قد تقدم فإن القسيس لم يستطيع كبح جماح رغبته في أن ينازل تلميذه فغلبه ميركو بسهولة ، كان يدير اللعب ببطء وعناد وهذوء ، له خطة محكمة لانكر ، وفي الليالي التالية لم يفلح القسيس ولا الضابط في الانتصار على هذا الصبي ولو مرة واحدة ، وشاق القسيس وهو يعلم مقدار غباء تلميذه في كل مجال آخر أن يعرف مدى هذه الموهبة الفذة ، فقاد ميركو الى حلاق القرية فقص قصة له في لون الهشيم حتى لا يفتحم منظره العيون ، ثم صحبه في العربة الزحافة الى البندر المجاور ، اذ كان يعرف فيه رجلا مهموما بلعبة الشطرنج يجيدها خيرا منه ويعكف عليها الساعات الطوال في ركن من قهوة الميدان الكبير .
ودخل القسيس القهوة وهو يدفع أمامه فتى لم يبلغ الخامسة عشرة ، مصفر الشعر أحمر الخدين ، على كتفيه فرو خروف مقلوب ، فحلق اليه جلاس

لاعب الشطرنج ٢٣

القهوة بدهشة وبقي الفتى مزروعا في مكانه قد غض من بصره في حياء ، حتى نودى عليه فأطاع وجلس يلعب فخر أول دور ، لانه لم يرق أسستاذه السابق ولا صديقه الضابط يلجأ في بدء اللعب الى الخطة التي تسمى « الدفاع الصقلي » وفي الدور الثاني نازله أمهر لاعب في القهوة فلم يخرج أحدهما غالبا أو مغلوبا ، ثم قهر بقية اللاعبين واحدا بعد آخر .

وهكذا اتيح لبندر صغير في يوغسلافيا أن يكون مسرحا لحادث مثير ، وأبيح لأعيانه أن يشهدوا الخطوات الأولى المذهلة لهذا البطل القروي ، وقر رأيهم بالاجماع على استبقاء هذا الفتى النابغة بينهم الى الغد حتى ينقلوا خبره الى بقية هواة اللعبة عندهم وعلى رأسهم الكونت سيمزك ، وهو رجل له هوس بلعبة الشطرنج أما القسيس — وقد بدأت نظرتة الى تلميذه ننطق بالفخر به — فقد شق عليه أن يهمل واجبات كنيسته واعلن انه لا يمانع في أن يبقى معهم تلميذه وحده لينازل بقية اللاعبين . فحجزت له حجرة في فندق البندر ، ورأى تلك الليلة لأول مرة مرحاضا له سيفون .

وفي مساء الاحد وفي صالة مكتظة بالناس مكث هذا الفتى أربع ساعات وهو جالس لا يتحرك أمام رقعة الشطرنج وقهر كل منازليه ، لا بلفظ بكلمة ولا يرفع نظره ، تم اقترحوا عليه أن يلاعب جماعة في وقت واحد وشق على أصحاب الاقتراح أن يفهموا هذا القروي المخلق الذهن معنى قولهم ، فلما فهم أخيرا أنهم يطلبون اليه أن يلاعب وحده وفي الوقت ذاته عددا متفرقا من اللاعبين أنفذ لهم رغبتهم على الفور ، وأخذ ينقل من لاعب الى الآخر ولحذائه النقييل صوت مسموع .

لاعب الشطرنج ٢٤

حينئذ بدأت مشاورات طويلة ، ومع ان هذا البطل الجديد لا يعد حقا من عشيرتهم الا ان حب استئثار بلدهم بكل صيت حسن تملك قلوبهم ، فمن يدري ؟ لعل بندرهم الصغير الذي لا يكاد يتبين موقعه في الخرائط يذيع اسمه يوما لأنه موطن رجل شهير .

تقدم متعهد حفلات اسمه كيلر ، شغلته تقديم الراقصات والمغنيات الى الحانات ، وتطوع بأن يصحب الفتى الأعجوبة الى مدينة فينا ، وأن يقدمه هناك الى أستاذ مدهش — هكذا قوله — يتولى صقل موهبته ، وقال ان الأمر يتوقف على أن يتكفل واحد منهم بدفع نفقة اقامة الفتى في تلك العاصمة لمدة سنة ، واذ كان الكونت سمزيك لم يلق طول حياته وهو يلعب الشطرنج منذ ستين سنة خصما يضارع هذا الفتى ، فانه تقدم على الفور وكتب حوالة بالمبلغ المطلوب ، وهكذا بدا هذا الفتى القروى ابن النوتى يشق طريقه الى قمة **المجد** .

ولم يمض ستة أشهر حتى ألم ميركو بكل أسرار لعبة الشطرنج ، ولو أن ادراكه لها ظل في الحق داخل حدود ضيقة ، وقد انكشف قصوره هذا وأصبح موضع تندر في المحافل التي ارتادها من بعد ، اذ كان لا بد له أن يرى الرقعة والقطع ماثلة امامه ، وظل من دينه — حتى بعد ان ذاعت شهرته في ارجاء الأرض — ان يحمل في جيبه لعبة شطرنج في حجم صغير حتى يهتدى به حين يريد حل معضلة أو اعادة تمثيل دور لعبة أستاذ شهير هذا العجز — وهو هين في ذاته — دل على قصور خيالة ، وجرى نكره بالعجب على السنة المحيطين به كما تجرى السنة هواة الموسيقى بالعجب من أحد مهرة

لاعب الشطرنج ٢٥

العازفين أو قائدى الاوركسترا حين يثقل حركته غياب النوتة الموسيقية عن عينيه ، ولكن هذه الخلة لم تعق ميركو عن أن يتوالى تألقه المذهل : فى السابعة عشرة من عمره كان قد نال أكثر من عشر جوائز ، وفى الثامنة عشرة أصبح بطل المجر ، وفى سن العشرين انتزع البطولة العالمية لنفسه ، وكشف بقية اللاعبين وهم يفوقونه بمراحل شاسعة فى الذكاء والخيال والجرأة عن عجزهم عن الصمود امام منطقته المحكم الصارم .

وكانت زمرة أئمة الشطرنج الى عهده لا تضم الا امثلة متنوعة عديدة للذكاء الفائق - من فلاسفة وعلماء فى الرياضة وانذاذ وهبهم الله سعة الخيال وخصوبته بل من هؤلاء الآخرين من جمع الى موهبته قدرته على الابتكار ، فاذا بهذه الزمرة يقتحمها شخص غريب على عالم الفكر ، يطالعها به فتى قروى جلف صموت ، لم يفلح الصحفيون قط فى أن ينتزعوا من فمه كلمة واحدة تنفع مقالاتهم عنه .

ولكن لابس ، انهم يجدون اجزل العوض فى فكر نواتره العديدة ، اذ ان هذا الفتى الذى لا ينكر أحد عليه موهبته اذا جلس الى الرقعة ، يصبح لحظة ان يفارقها شخصا يثير السخرية والهزء رغم وقار بذلته السوداء ومخفخة رباط رقبتة ، تزينه لؤلؤة ثمينة ، ومع أن يديه تمان عن فرط العناية بهما والالاحاح فى تلميع اظافرها ، فانه ظل يحتفظ فى حركته وتصرفاته بهيئة القروى الجلف الذى طالما كنس حجرة القسيس فى عهد من عهوده .

وكان زملاؤه بيتسمون تارة ويتفجعون للفضيحة تارة اخرى حين يروونه وهو ينفى التجمل والخجل ، لايشغل

لاعب الشطرنج ٢٦

فكره بشيء الا استغلال موهبته وشهرته ليعتصر منهما آخر قرش يستطيع أن يربحه ، لا ينكس من جشعه عن الانحطاط الى أحقر الدنيا ، في أسفاره العديدة لا ينزل الا في فنادق الدرجة الثالثة ، ولا يرفض أن يلعب في النوادي المغمورة مادام يحصل منها على أجره ، ورأى الناس صورته على اعلان عن صابون ، ولم يأبه لسخرية العالمين بعجزه عن أن يخط جملة واحدة صحيحة وياع اسمه لناشر ليضعه على كتاب يصدره بعنوان (فلسفة الشطرنج) ، والحقيقة أن هذا الكتاب هو من تأليف طالب من غاليسيا بتكليف من هذا الناشر البارع في تجارته كالأزرق الناب .

وفقد زينتوفيك — ككل رجل عنيد — كل احساس ببواعث السخرية ، وظن نفسه بعد أن انتزع البطولة العالمية قد أصبح أهم شخص في الدنيا ، وحين ملا جنبه الزهو بانتصاره على أصحاب الفكاء الفائق وعلى المشهورين بقدرتهم على خلب الالباب بأحاديثهم الشيقة أو بتفوقهم في مجال الأدب ، وحين رأى بالاخض أنه يربح من المال أكثر منهم ، انقلب حياؤه الاصيل الى بجاجة باردة ، يعرضها بعجرفة سخيفة على الناس ولا يبالي .

واستطرد صديقي يروي لي نوادر اخرى عن سذاجة غرور زينتوفيك وخنم كلامه قائلًا :

— ولكن كيف كان يمكن لمثل هذا النجاح العاجل الا أن يدير رأسا فارغا مثل رأسه ؟ كيف تريد من فتى فلاح من قرية مجهولة ، لا يزال في سن الواحدة والعشرين ، أن لا يدور رأسه وهو يرى أنه يكفيه نقل قطعة من الشطرنج على الرقعة ليربح من المال في أسبوع واحد

لاعب الشطرنج ٢٧

ما يفوق كل ما يربحه أفراد عشيرته في سنة كاملة بعمل شاق في الحقول والغابات ؟ أو ليس من الهين أن يحسب انسان نفسه رجلا عظيما اذا كان هذا الانسان يجهل أن الدنيا قد عرفت رمبرانت وبينهوفن ودانتى ؟ ان هذا الفتى الغضُ لا يشغل فكره الا بخاطر واحد ، هو أنه منذ شهور لم يخسر دورا واحدا ، لاعجب ان امتلاً غرورا بنفسه لأنه في غفلة عن وجود قيم اخرى في هذه الدنيا غير الشطرنج والمال .

لم يخب كلام صديقى فى اثاره عجبى واهتمامى ،فانى
 أهيم دائما بدراسة أصحاب الفكرة الثابتة ، فمن خلال
 عالمهم الضيق نصل الى عالم لا نهائى ، هم وان عاشوا
 فى وحدة ظاهرة يبنون بها فى أيديهم من مواد خاصة
 بهم — وكما يفعل النمل — نماذج مصفرة لعوالم
 مدهشة ، فأعلنت لصديقى عزمى على أن أراقب عن
 كئيب هذا المثل الفريد لحصر الذهن ونموه داخل مجال
 واحد ، وقلت اننى لتحقيق غرضى سوف أستغل على
 أحسن وجه هذه الأيام الاثنى عشر التى تلتزمنا للوصول
 الى مدينة ريو .

وحذرنى صديقى قائلا :

— ان فرص التوفيق أمامك ضئيلة ، لا أعلم أحدا
 قد نجح فى أن ينتزع من زينتوفيك كلمة تنبئ عن ضميره .
 فهذا الجلف يخفى وراء غياهب غبائه مكرًا يتحرز به
 من كشف دخيلة نفسه والأمر سهل عليه ، فهو يتجنب
 الحديث الا مع أناس على شاكلته من القرويين الذين
 يصادفهم فى الفنادق الحقيرة حين ينزلها ، فان أحسن ان
 محدثه رجل مثقف اختفى داخل توقعته ، وهكذا لا
 يستطيع انسان أن يفخر بأنه سمعه ينطق بكلمة
 تتم عن غفلته وغبائه أو بأنه استطاع أن يقيس مدى
 جهله .

وقد أثبتت تجربتى صحة قول صديقى ، ففى الأيام
 الاولى من الرحلة عجزت رغم كل جهد عن أن أتصل
 به ، الا اذا أقحمت عليه نفسى بقله أدب ، وهذا ليس
 من طبعى ولا من عادتى .

لامب الشطرنج ٢٩

كان يصعد الى سطح السفينة في اوقات عديدة ، ولكن له هيئة تنبىء انه يخلو لنفسه وأفكاره فيصعد الناس عنه ، يدها مشتبكتان وراء ظهره في وضع عرف به نابليون بونابرت بشهادة صورة شهيرة له ، ثم ينصرف فجأة وعلى عجل بحيث لا يبقى لمن يريد مخاطبته الا أن يجرى وراءه . لم يره احد لا في (البار) ولا في حجرة التدخين ولا في (الصالون) ، وانضى الى أحد الخدم أنه قضى معظم وقته في حجرته يتدرب على اللعب بشطرنج من حجم كبير .

كفتنى الأيام الثلاثة الاولى لأن أقتنع بأن صدوده أقوى من رغبتى في انشاء صلة لى به ، وغاظنى اخفاقتى ، ولم يكن سبق لى أن أعرف عن قرب بطلا من أبطال الشطرنج ، وكلما حاولت أن أفكر كيف يكون هذا البطل زاد عجزى عن نظره ، ماهى حقيقة ذهن محصور طول العمر في رقعة منقسمة الى ٦٤ مربعا بين ابيض واسود ؟ لاجرم أننى أعرف بالخبرة مدى السحر الخفى في هذه اللعبة الملكية التى تنفرد دون سائر الالعاب بتحررها الأسمى من نزوات الحظ وسلطانه ، لا يعود فضل الانتصار فيها الا للذكاء وحده ، أو على الأصح— لنوع معين من الذكاء . ولكن ليس في اطلاق وصف « اللعبة » على الشطرنج بخس من قدرها ؟ ليس الشطرنج علما وفنا أو شيئا يتراوح بين الاثنتين ؟ أن تاريخ مولد الشطرنج يرجع الى أزمان موهلة في القدم ، ومع ذلك فهو جديد أبدا ، حقا ان قطعه تنتقل بحركة ميكانيكية يترتب بعضها على بعض ، ولكن الفوز يتوقف على ذكاء اللاعب وحده، الشطرنج مقيد برقعة هندسية ثابتة ومع ذلك فلا حد لتعدد أشكاله وتأليفه ، انه دائم

لاعب الشطرنج ٣٠

الانكشاف ولكن بدون ثمرة وبلا هدف ، انه فكر لا يؤدي الى شيء ، وحساب لا يثبت شيئاً ، وفن لا يبقى له أثر ، وعمارة بلا قوالب ، ومع ذلك فقد أثبت انه بطريقته الخاصة أبقى من الكتب وكل الآثار الفنية . هذه اللعبة الفريدة تملكها كل الشعوب في كل الأوقات ، لأحد يدري أى وحى وهب الشطرنج للبشر ليقتل الملل ويؤجج وينعش الروح . أين بدايته وأين نهايته ؟ يستطيع المصعب الصغير ان يتعلم قواعده ، وفي مكنة الجاهل ان يلهم بها ويصبح صاحب مقدره لا مثيل لها اذا منحته الأقدار موهبة فهم الشطرنج ، واذا اجتمع الصبر وحذق أصول اللعبة يؤازرها نظر كاشف للأستار ، تأتي الوصول الى ابتكارات عديدة ، كما يحدث في علم الرياضة وفن الموسيقى والشعر .

لو أتيج لرواد العلم الحديث في القرون الماضية أن يعاصروا بطلا في لعبة الشطرنج ، فلربما دفع شغف المعرفة بأستاذ من بينهم يعنى بعلم وظائف المخ — مثل الدكتور جال — الى أن يقوم بتشريح جبهة هذا البطل بعد موته ليعرف هل مخه ينفرد بخصائص تميزه عن سائر الناس ، بأن تكون مادته السنجابية مختلفة ، أو أن يكون له أعصاب أو نتوء لا ترى في مخ أحد غيره ما أمتعه من انموذج للدراسة كان لا يمكن أن يقدمه له الا رجل يجمع في آن واحد بين موهبة خاصة فائقة في لعب الشطرنج وخمول عقلى بلغ تمامه ، موهبته تندس في ذهنه كما يندس عرق الذهب في بطن الصخور السم .
حقا اننى أفهم — من حيث المبدأ — أن لعبة لها مثل هذا التفوق النابغ قادرة على أن تجتبي فرسانا يجولون ويصولون في ميدانها شأن مسارعى الثيران في حلبتهم

لاعب الشطرنج ٢١

ولكن كيف يتأتى تصور نكء يمضى عمره كله محصوراً في رقعة صغيرة ، لايشغله الا تحريك اثنتين وثلاثين قطعة الى الامام او الى الخلف فوق مربعات ببض وسوداً وكيف ان كل مجد لصاحب هذا الذهن ينوقف على نجاحه في رسم هذه الحركات ؟ اى شىء هو هذا الرجل الذى يؤمن أنه أتى بعمل بطولى لجرد انه افتتح للعب ينقل الفرس بدل البيدق ؟

بفضل هذه الحركة يذكر اسمه في كتب الشطرنج ويشغل مكانه الصغير بين الخالدين . بل اى شىء هو هذا الرجل الذكى الذى يستطيع — دون أن يصاب بالجنون — ان تمضى عليه من السنين عشر وعشرون وثلاثون وأربعون وهو لا ينفك يكرس غاية طاقته الذهنية لبلوغ هدف سخيف وهو كيف يؤخر ملكا من خشب الى مربع في ركن الرقعة ؟

واليوم أجد لأول مرة بالقرب منى ، في السفينة التى تحملنى ، على بعد ست قمرات من قمرتى ، أنموذجاً لهذه الموهبة الفذة ، لهذا النبوغ الفائق أو ان شئت لهذا الجنون الغامض . ومع ذلك لايتأتى لى أنا الاقتراب منه ، أنا الذى أهيم طول حياتى بعالم الذهن . شرعت أرسم لنفسى خططاً سخيفة ، هل أزعم اننى مراسل صحيفة مشهورة واطلب منه حديثاً ، أو أزعم اننى أعرض عليه جولة فى استكلندا يربح منها مالا وفيراً ؟ وأخيراً تذكرت ان الصائديجذب فريسته اذا قلدا صرختها فى موسم التلاقح وقلت لنفسى ان خير حيلة تصيد بها لاعب الشطرنج هو ان يراك تلعبه أنت . .

أعترف اننى لست من المبرزين فى الشطرنج فانى لالعبه الا التماساً للتسوية ، واذا جلست الى الرقعة

لاعب الشطرنج ٣٢

فطلب الاسترخاء وصرف البال عن المشاغل ، ثم ان الشطرنج — كالحب — يتطلب اجتماع اثنين ، ولا أعرف هل بين الركاب من يلعبه غيرى وغير زوجى ، فمن أجل أن نتصيد لاعبى الشطرنج بيننا — ان كان هناك أحد منهم — انخذت أنا وزوجى مكانا لنا فى حجرة التدخين امام رقعة شطرنج ، وزعمنا أننا مستغرقان فى اللعب ، فلم نكد نمضى فى اللعب قليلا حتى وقف بجانبنا راكب تخطى عن نزهته وتبعه آخر وطلبا منا الاذن لهما بمشاهدة اللعب .

وأخيرا تقدم راكب آخر وأستأذنى فى أن اللعب معه، وهو مهندس اسكتلندى اسمه ماك كونور ، قيل لى عنه انه جمع ثروة طائلة من شق آبار البترول فى كاليفورنيا ، هو رجل ربعة ، عريض الذقن ، سليم الاسنان ثراء تورد بشرته راجع الى غرامه بالويسكى، عريض الأكتاف مما يدل على أنه صاحب عزم حتى فى لعبه ، فهو من جنس هؤلاء الرجال الذين لا تخطيء العين ان حياتهم ناجحة ، ويبلغ بهم الوثوق بالنفس الى حد أنهم يعدون هزيمتهم ولو فى لعبة مذلة لأشخاصهم، فان هذا العصامى اللحيم الذى الف الاستبداد برأيه وأن يأمر يخشونه فيطاع ، والذى رده النجاح الصادق غير المزيف الى طفل مدلل ، قد بلغ من غروره بتفوقه أن يعتبر كل معارضة له نوعا من الفوضى بل يكاد يعتبرها اهانة له .

خسر ماك كونور اول دور فتبلكه الضجر والغيط ، وأخذ يشرح بتدفق وبلهجة الواثق المطاع كيف انه لم يخسر الا لأن ذهنه قد سرح لحظة أثناء اللعب ، وخسر بعد ذلك دورا ثانيا ، وءال هزيمته فى الدور الثالث بأن

لاعب الشطرنج ٢٣

ضجة في الحجرة المجاورة قد أفلقت ذهنه ، وكان اذا خسر الدور أسر على أن يلعب دورا جديدا ، وقد لذ لى أول الأمر أن أراقب استماتته في سبيل الفوز ، ثم قلت لنفسي ان اللعب معه عارض ثانوى في خطتى ليس من شأنه أن يفسدها .

وفي اليوم الثالث نجحت خطتى ولكنها نجحت نصف نجاح ، فالظاهر أن زينوفيك لحظنا من خلال النافذة وهو يئنزه في المشى ، فهل بنازل يا ترى ويشرفنا بانضمامه الينا ؟

والذى حدث اننا رأيناه يخطو الى حجرة التدخين خطوات تبدو غير متعمدة ، فلما دخل القى من بعيد نظرة الخبير الى الرقعة التى هى ميدان فنه ، وكان مالك كونور آنذ ينقل بيدقا يا لسوء الحظ ! لقد كفت هذه الحركة وحدها أن تقنع الاسناذ الكبير بأننا غير جديرين باهتمامه والنزول الينا من عليائه .

ابتعد زينتوفيك عنا وغادر حجره التدخين ، لفظنا بحركة من يدخل مكتبة للبحث عن كتاب قيم فنقع يده على قصة بوليسية رخصه قبطوح بها على الفور دون ان يعنى بتقليب أوراقها ، فقلت لنفسي : وضعنا في الميزان فهان عنده قدرنا ، وشعرت بامعاض من نظرته الدالة على احتقارنا ولم أسنطع أن اكنم ضيقى فقلت لملك كونور :

- الظاهر ان حركتك لم تعجب الاستاذ .
- أى استاذ تعنى ؟

فاوضحت له ان هذ الرجل الذى وقف الى جانبنا وألقى الى الرقعة نظرة تنم عن عدم الرضى انما هو زينتوفيك البطل العالمى للعبة الشطرنج ...

لاعب الشطرنج ٢٤

ثم أضفت :

— لا حيلة لنا الا ان نقبل احتقاره ونحتمل اهانهه
بنفس قانعة ، كما يقنع الفقير بطبخ اكله بالماء ان فانه
الدهن .

ولكن قولى هذا وما جعلته ينم الا عن تجردى وحيادى
كان له وقع مذهل عجيب . ، فقد اضطرب ماك كنور
وهاج ، وتخلّى عن الدور الذى بدأه ، وانتفخت أوداجه
من شدة تملله لجرح كرامته ، وقال انه لم يكن يعلم
ان زينتوفيك مسافر معنا ، وأنه اذن لابد أن ينازله ،
لأنه لم يلعب من قبل مع بطل من أبطال الشطرنج الا
مرة واحدة ، حين نازل في لعبة جماعية احد هؤلاء
الأبطال ، وكاد يكسب الدور ، وسألنى هل زينتوفيك
من خلطائى ؟ فلما نفيت له ذلك اقترح على أن اذهب
واقبله لأرجوه الانضمام الينا ، فرفضت متعللا بأن
زينتوفيك لا يجب فى مبلغ علمى أن يوسع دائرة خلطائه،
تم قلت أى متعة لبطل مثله أن يلعب مع هواة من
الدرجة الثالثة مثلنا ؟

اعترف اننى اخطأت ، كان الحرص يقتضىنى أن لا
أرمى بعبارة اللاعبين من الدرجة الثالثة امام رجل
مغرور مثل ماك كونور .

مال صاحبنا بظهره الى الورا وقال بلهجة خشنة :
انه يعتقد أن زينتوفيك لا يسعه الا القبول اذا دعاه سيد
مهذب ، وأنه هو نفسه سينكفل بدعوته وطلب منى
أن أحيطه علما به فأمدده بوصف موجز لزينتوفيك ،
فلم أكد أفرغ حتى انطلق يبحث عنه على ظهر السفينة
ورأيت مرة أخرى كيف يكون من العبث أن تحاول
أثناء رجل له مثل هذه الاكاف العريضة عن تنفيذ

لاعب الشطرنج ٢٥

فكرته ، ومكثت أنتظر النتيجة في شيء من القلق والنوجس وعاد بعد عشر دقائق ووجهه ينطق بالغيظ وقال :

— أصبت ، ان هذا الرجل جلف ، قدمت له نفسى وعرفنه بمقامى فلم يتنازل حتى أن يمد لى بده ، فبذلت غاية جهدى لاقتناعه بأن جميع المسافرين يسرهم غاية السرور أن يلعب معنا نحن لعبة جماعية ، ومع ذلك لم يلب جانبى وقال انه يأسف اذا رفض الدعوة لأنه مرتبط بعقد يلزمه بأن لا يلعب خلال جولته الا بأجر ، لذلك فهو مضطر لان يطلب منا أن ندفع له ٢٥٠ دولارا على الأقل عن كل دور ..

فاندفعت ضاحكا وقلت : ماكنت احسب قط ان نقل قطعة من الخشب من مربع ابيض الى مربع اسود يدر مثل هذا القدر الكبير من المال ، امل ان تكون قد ودعته وانت تفارقه وداعا جميلا لا لقاء بعده .

ظل ماك كتور محتفظا بسمة الجد وقال :

— سيجرى اللعب فى الساعة الثالثة عصر الغد فى حجرة التدخين هنا ، وأرجو أن نصمد فلا تلحقنا هزيمة ساحقة ..

فصرخت فيه والأسف يملؤنى : ماذا ؟ هل قبلت شروطه ؟

— ولم لا .. انها مهنته ومورد رزقه ، فلو وجعنى ضرى وكان معنا على السفينة طيب أسنان لما طالبتة ان يخلعه لى مجانا ! ان زيتونيك على حق ، ككل رجل حائق يحسن تدبير أموره وأما عن نفسى فانى أومن فى الصفقات بالممثل القائل « الشرط نور » فانى أفضل أن أدفع الأجر حتى لا يكون اعتمادى وحده على ظرفه ولطفه اذا اكتفيت بشكره بعد نهاية اللعب . تم انه يحدث لى

لاعب الشطرنج ٣٦

ان اُخسر في ليلة واحدة في النادي أكثر من ٢٥٠ دولارا دون أن أحظى باللعب مع بطل عالمي ، ولا ضمير على لاعب في الدرجة الثالثة أن — يهزم امام زينوفيك .

أمدنى قوله هذا بدليل على اننى حين وصفته ببراءة وحسن نية بأنه لاعب في الدرجة الثالثة قد اصبت كبرياءه بجرح بليغ لا يزال له نغز يلح عليه ، ولم يسعنى الا أن أوافقته مادام قد اعتزم ان يدفع من أجل متعته هذا المبلغ الكبير ، انه سيتيح لى الفرصة لأن أشهد عن كذب هذه الشخصية التى أنارت اهتمامى ، وسارعنا بإبلاغ الخبر الى أربعة أو خمسة من المسافرين نعرف انهم من هواة الشطرنج . وتأميننا لراحنا غدا حجزنا جميع المقاعد القريبة من مجلسنا .

لم تأذن الساعة المتفق عليها حتى النأم شمل زميرنا الصغيرة ، وتخلينا بطبيعة الحال الى ماك كتور عن المقعد المواجه لمقعد الاسناذ ، وأخذ صاحبنا الاسكتلندي - وقد استبد به القلق - يدخن سيجارة اثر أخرى ، ولا ينفك ينظر الى الساعة المعلقة على الجدار ، ولطعنا زينتوفيك عشر دقائق بعدا موعده دلالة على مقام بطل شهير ، فلم يدهشنى ذلك منه بعد أن عرفت مسلكه مع ماك كتور ، وأخيرا هل علينا بوجه يبلغ نطقه بالوثوق بالنفس حد البجاجة ، وخطا الى المنضدة خطوات متئدة مرسومة ، ولم يقدم نفسه الينا ، كأنه يقول لنا «أنتم نعلمون من أنا ولا يهمنى فى شىء أن أعلم من أنتم » وبدأ صف قطع اللعب بخشونة المحترمين ، وتعذر أن تدار بيننا وبينه لعبة جماعية ، إذ لم يكن بالسفينة عدد من رقع الشطرنج يكافئ عدد أفرادا زميرنا كلهم ، فاقترح زينتوفيك علينا أن ينضم بعضنا الى بعض من جهة واحدة نلعب ضده ، وعرض علينا أيضا أنه بعد كل حركة منه سيبتعد عن المنضدة الى نهاية الحجرة ليخلو لنا الجو لتبادل الرأى بيننا ، وأن نقرع كوبا من الزجاج بملعقة - فليس عندنا جرس - كلما فرغنا نحن من حركة ، وأن لايزيد الوقت بين حركة وأخرى - اذا وافقنا - عن عشر دقائق ، فقبلنا بطبيعة الحال عروضه كلها ونحن أشبه بتلاميذ غلبهم التهييب والحياء . وخرج اللون الاسود فى القرعة من نصيب زينتوفيك فكان رده على أول حركة منا نفتتح بها نحن اللعب أن نقل على الفور قطعة من القطع وهو

لاعب الشطرنج ٢٨

واقف لايبالي أن يجلس ، ثم مضى لنوه الى نهاية الحجرة يحتل المقعد الذي اختاره للبقاء فيه الى أن ننتهى نحن من التشاور ، وشرع ينصفح باهمال مجلة مصوره . لاجدوى في ان أروى هذا الدور بالتفصيل ، حاقت بنا هزيمة ساحقة بعد ٢٤ حركة ، وأى عجب في أن ينتصر بطل عالمي على عدد من أوساط اللاعبين .

ولكن الذي أغمنا أكثر من الهزيمة هو اعتداده بنفسه وتعمده أن يشعرنا بنفوقه ، لايلقى الى الرقعة الا نظرة عارضة ، ولا الينا الا نظرة عابرة باهمال ، كأننا أيضا قطع من الخشب ، أو كلاب جرب يلقي اليها المار بعظمة من وراء ظهره ، وقلت لنفسى : لو حباه الله ثسبنا من الرقعة لتنازل ونبهنا الى الأخطاء التي نرتكبها أو شجعنا بكلمة طيبة ، ولكن كلا . ماكاد الدور ينتهى حتى نطقت هذه الآلة الصماء قائلة « كش الملك — مات الملك » تم ظل واقفا صامتا لايسحرك ينتظر أن يعرف هل نرغب أولا نرغب في أن نلعب دورا نانيا ؟ صفاقة هيهات أن تقاوم

وكنت قد قمت من مقعدى معلنا بذلك أن هذه هي نهاية لهونا ، وإذا بى لشدة دهشتى أسمع ماك كنور يقول بصوت مبجوح
— نلعب دورا نانيا !

قالها بلهجة تحد أخافتنى ، وبدا لى ماك كنور في تلك اللحظة لافى صورة السيد المهذب بل في صورة الملاكم الذى يسعد لتوجيه ضربته . أبرجع سبب لهجنه الى معاملة زينتوفيك لنا بغلظة ؟ أم الى مافى طبع ماك كنور من غرور مريض ؟ على كل حال تجلت لنا منه صورة غير صورته المألوفة . ائتمد احمرار وجهه

لاهب الشطرنج ٣٩

حتى بلغ مثبت شعره . اتسع منخرا أنفه ، ويتنفس بصوت ويعض على شفته . وارتسم أخدود عميق بين فمه وذقنه العريض ، وعرفت بجزع في عينيه يريق النلهف الجنوني الذي لا يصيب عادة الا المقاهرين لاعبي الرولين الذين يضاعفون رهانهم لسادس وسابع مرة على لون لا يخرج لهم . ان غروره الأحق سيسنتزف كل ماله وسيظل يلعب مع زينتوفيك مرة بعد أخرى على أمل ان يفوز بدور واحد على الأقل ، واذا وجد منه مطاوعة كان له بمنابة النجم الذي يستنزف منه بضعة آلاف من الدولارات قبل ان نلغ بيونس ابريس ، اما زينتوفيك فقد ظل جامدا لا ينطق وجهه بشيء .. ثم قال :

— الأمر لكم . اللون الأسود هذه المرة من نصيبكم . ومضى الدور الثاني كاللور الأول وان زادت حلقتنا قليلا بانضمام بعض من ساقهم الينا حب التطلع وتسمرت نظرة ماك كونور على الرقعة كأنه يريد أن يسحر قطع اللعب بتيار مغناطيسى يقودها الى النصر ، وشعرت أنه على استعداد لان يدفع ألف دولار لو أسعده الحظ بأن يصرخ « كش الملك .. مات الملك » في وجه غريمه الذى لا يعرف الجملة . وانتقل الينا بالعدوى شيء من حماسه واصراره ، فأخذنا نناقش كل حركة وقد ازداد هياج نفوسنا ، ولا نتفق على رأى الا قبيل انتهاء مهلته من قبل ان ننادى زينتوفيك ليعود الينا . كنا قد وصلنا آتئذ الى الحركة السابعة عشرة فاذا بنا لشدة دهشتنا نرى اللعب يتحول الى مصلحتنا اذ نجحنا فى أن ننفخ ببندق الى الصف السابق للصف الأخير ، ولم يبق الا أن نقدمه خطوة واحدة حتى

لاعب الشطرنج . ٤٠

يستبدل بهذه القطعة وزير ، ولم تكن في الحق على ثقة بان الحظ قد ابتسم لنا ، وخامرنا جميعا شك في مكر زينونويك . انه ولا ريب ينظر ابعد منا ، انه يقدم لنا هذا الطعم لغرض يئكتمه واجهدنا انفسنا في البحث والنقاش حتى نكتشف هذا الغرض فلم نوفق .

واخيرا اقتربت المهلة من نهايتها وكان رأينا قد اسنقر على اغتنام الفرصة وتقديم البيدق وكاد ماك كنور يدفعه الى الصف الأخير « فاذا برجل يمك ذراعاه ويهمس في اذنه « اياك أن بفعل بالله عليك » ، التفتنا اليه جميعا على غير ارادة منا رأينا رجلا قارب الخامسة والاربعين ، له وجه مكنز بادي العظام وكنت قد صادفته من قبل على ظهر السفينة وراعنى منه شحوبه الشديد ، لاشك انه كان قد اقترب منا ، ونحن مستغرقون في تدبر حل للمعضلة التي تواجها ، فلما احس بنظرانا سبت عليه اضاف :

اذا قدمتم البيدق الآن واستبدلتم به قطعة الوزير، بانه سيهاجمكم بالفيل ، فنردون الهجوم بتحرك الفرس، ولكنه يكون قد هدد قلعتكم ببيدقه ، وحتى لو ضحينم بالفرس فان الهزيمة ستحقيق بكم بعد الحركة التاسعة أو العاشرة ، ان الوضع الذي أنتم فيه يشبه الى حد كبير وضع الدور الذي لعبه اليكين مع بوجولشوبوف في المباراة الكبرى سنة ١٩٢٢ بمدينة ببستيان .

عدل ماك كنور — وقد علمه الدهشة — عن تقديم البيدق ، وكان لايزال محتفظا به في يده ، واخذ يتأمل في عجب — شأننا جميعا — هذا الرجل الذي كأنها هبط علينا من السماء كالمك الحرس . ان رجلا يستطيع من سابق ان يحزر مجرى اللعب بمقدار تسع حركات لا بد

لاعب الشطرنج ٤١

أن يكون من أئمة المحترفين بل لعله من قراء زنتوفيك ،
وسافر أيضا للاشتراك في المباريات ذاتها ، وعددناها
من قبيل المعجزات أن يقدم لنا هذا الرجل ويرشدنا
في عز الوقت الذي بلغ بنا الحرح نروبه ، وكان ماك
كتور هو أول من استفاد من الدهشة وهمس له وقد
هاجت نفسه :

— بماذا تنصحنى .

— لا يقدم البيدق الآن ، وبجنب خصمك ، عليك
أول كل شيء أن بزحزح الملك عن موضعه ، ففيه يكمن
الخطر . أن خصمك سيهاجم من الجناح الآخر ، وحينئذ
تصدونه بالقلعة ويخسر بذلك بيدقا كما يخسر نفوذه
عليكم ، وإذا أحسنتم الدفاع خرجتم لاغالبين ولا مغلوبين
هذا غاية ما تبلغونه من هذا الدور .

انتقلنا من دهشة الى دهشة أكبر ، وبهرنا منه هذا
التجديد للحركات وهذه السرعة في حسابها ، وخيل
لنا أن هذا الرجل يقرأ الحركات من كتاب وأنه لايعزى
الا لمعجزة خارقة خروجنا من اللعب مع بطل عالمي
لاغالبين ولا مغلوبين ، وتزحزحنا جميعا بحركة واحدة
بلقائية لنفسح له موضعا ينيح له رؤية أفضل للرقعة
وكرر ماك كثور سؤاله :

— هل أنقل الملك ؟

— بلا ريب .. بذلك تتجنب خصمك .

أطاعه ماك كثور وقرعنا الكوب فاقترب منا زنتوفيك
خطواته الهائلة المبهتة ، وكفته نظرة واحدة لأن
يتدبر رده على حركته ، ثم قدم بيدقا في الجناح الآخر
كما توقع منقذنا المجهول ، الذي همس من بوه وقد
احتدصونه :

لاعب الشطرنج ٤٢

— القلعة ، قدموا القلعة ليضطر الى حماية بيدقه ولن ينفعه هذا في شيء ، ستهاجمونه حينئذ بالفرس ، وبذلك نعود المساواة بينكما كما كانت ، نم يبدأ هجومكم ولن تكونوا في حاجة الى التزام الدفاع .

لم نفهم شيئاً من قوله كأنما كان يتكلم باللغة الصينية ، واستخذى له ماك كنور وأنفذ نصيحته دون أن بجهد فكره ، وقرعنا الكوب من جديد ، ولأول مرة لم يسارع زينتوفيك الى اللعب من فوره ، بل ظل يتأمل الرقعة طويلاً ثم حرك القطعة التي تنبأ بها صاحبنا المجهول وتهياً للابتعاد عنا .

حينئذ وقع حادث جديد غير منظر .. رفع زينتوفيك بصره وجمال به بيننا ، انه يحاول وريب ان يدرك من منا قدنا صمد له فجأة ، وأصبح هياج نفوسنا منذ تلك اللحظة لايعرف له حدا ، كنا نلعب بلا أمل ، فاذا بدمنا تلهبه فكرة تحطيم زينتوفيك وكبريائه المباردة ، وكان صاحبنا المجهول قد فرغ من تدبير الحركة التالية فارتعشت أصابعي وأنا أنناول الملعقة لأقرع بها الكوب لاستدعاء زينتوفيك .

فقدنا حينئذ لذة أول انتصار لنا ، فان البطل الذي لم يشأ من قبل أن يلعب الا واقفا تردد هذه المرة لم تردد ، تم انتهى ترده بان جلس وهو كاره ، ناركا جسمه يهوى الى المقعد مالنا وله ، انه كف عن ان يملن بالواقع المحسوس استعلاءه علينا ، قد أجبرناه على النزول الينا لنبقى جميعا في مستوى واحد في فضساء الكون على الأقل ، أطال زينتوفيك الاستغراق في التفكير ورأسه محنية على الرقعة الى حد اننا عجزنا عن رؤية مقلتيه من تحت جفنيه الثقيلتين ، وأجبرته شدة الجهد

لاعب الشطرنج ٤٣

الذي يبذله أن يبقى فيه مفبوحا ، واكتسى وجهه المستدير بشيء من بلاهة الأطفال ، وبعد مضي بضعة دقائق لعب لعبته ونهض فمتم صاحبا .

— اجاد اللعب وبجنب الخطر ، ولكن اياكم ان يخذعكم ، العبوا بحيث لايبقى له خيار في لعبته القادمة اذا اردتم الخروج من الدور لاغالبين ولا مغلوبين ، لاشيء الآن يستطيع انقاذه .

اطاعه ماك كنور ، وانحصر اللعب بعد ذلك بين الخدميين ، ونحن كأننا زمرة من الكومبارس لانفهم شيئا ، وبعد ست أو سبع نقلات بقى زينتوفيك مستغرقا في التفكير تم أعلن :
— الدور « باطة » .

واطبق السكون الشامل علينا لفترة من الزمن ، وبدانا فجأة نسمع بوضوح خرير الأمواج وموسيقى الجاز الخافتة المنبعثة من مذياع في الصالون المجاور ، وأصبح لوقع أقدام المتزهين على سطح السفينة صوت بين يصل إلينا ، بل انبتهت آذاننا لهذا الصرير الخفيف الذي يحده الريح وهو يمر من خصاص النوافذ .

كتمنا أنفاسنا لشدة الدهشة من انقباض هذه المباغنه علينا ، وراعنا أن حدث أمامنا شيء يجلب عن المصديق : كيف استطاع رجل مجهول أن يوقع ببطل عالمي نصف هزيمة ؟ مال ماك كنور فجأة الى الموراء وندت من فمه صرخة تدل على الغبطة والفرح ، وكنت أراقب زينتوفيك فحبل الى أن وجهه قد شحب قليلا أثناء الحركات الأخيرة في الدور ، ولكنه عرف كيف بتمالك نفسه وظل على جموده وقلة مبالاته ، ثم رفع قطع الشطرنج بيده وقال بصوت عاطل لاينم عن دخيله

لاعب الشطرنج ٤٤

ضميره .
 — هل تريدون أيها السادة ان نلعب دورا ثالثا .
 التى سؤاله بلهجة من يتحدث عن مسألة لا تمس
 شخصه ، كأنه رجل أعمال يتكلم عن صفقة تأتى
 وتروح .

ولكنه حين نطق بسؤاله لم يوجهه الى ماك كنور ،
 بل تمذف بنظرة نفاذة ناحية منقذنا المجهول ، وكما ان
 للفارس احساسا يدرك به لحظة أن يمطيه انسان هل
 هو راكب خبير أم غير خبير فكذلك زينتوفيك ، لاشك
 أدرك باحساس له أثناء الحركات الأخيرة فى الدور اى
 رجل هو خصمه ، لاحظنا جميعا نظرتة على غير ارادة
 منا والتفتنا ناحية الرجل المجهول ، لم يترك له ماك
 كنور وقتا يتدبر فيه امره أو ينطق باجابته ، بل صرخ
 اليه وقد انتفخت اوداجه من زهو الانتظار :
 — نوافق على العين والراس ولكنك ستلعب انت
 وحدك معه ، أنت وحدك ضد زينتوفيك .

حينئذ وقع حادث غريب ، كان الرجل المجهول قد
 بقى يئامل الرقعة الخالية باستفراق غير مفهوم ، فاذا بنا
 نراه حين أحس الانتظار نبتت عليه وتناشده بالحاح —
 ينهض قفزا من مكانه وقد اضطرب ايها اضطراب ، وتمتم
 بارنباك :

كلا . كلا . هذا محال . أيها السادة . اننى لاستطيع
 أن أستجيب لكم ، لقد مضى على عشرون أو خمس
 وعشرون سنة دون أن يقع نظرى على رقعة شطرنج ،
 لقد أقحمت نفسى عليكم بغير اننكم ، وأدرك الآن فحسب
 أن هذا الاقحام كان حماقة منى ، أرجوكم الصفح عن
 طفلىل يعاهد نفسه ان يتوب توبة نصوحا ، صدقونى؟

لاعب الشطرنج ٥٥

ثم غادر الحجرة من قبل ان نستفيق من دهشتنا .
صرخ ماك كنور وهو يغلى ويضرب المنضدة بقبضة يده .
— في المسألة سر لايد ان نعرفه أهذا شأن رجل زعم
انه لم يلعب الشطرنج منذ خمس وعشرين سنة ؟ هذا
مستحيل . انه كان يتدبر بامعان كل حركة وبحرز خطة
خصمه قبل سفورها بوقت طويل ، ليس في قدرة انسان
ان يلعب هكذا اعتباطا . . هذا شيء مستحيل كل
الاستحالة .

وانتفت ماك كنور عن عمد الى زينتوفيك وساله :
— الست من هذا الرأي .

ولكن الرجل ظل جامدا ثم قال .

— لااستطيع ان احكم ، في الحق ان هذا السيد له
فن يلفت النظر لذلك تساهلت ورضيت ان اترك له
فرصة يثبت فيها تفوقه .
ثم نهض وأضاف وهو غير مبال :

— اذا أحب أحد منكم أيها السادة ان يلعب غدا فاني
رهن مشيئته هنا ابتداء من الساعة الثالثة من عصر
الغد .

لم نقو على كتم ابتسامة علت شفاهنا ، كنا نعلم
جهيما انه اذا كان قد خسر الدور فمكره اخاك لايبطل !
وان كلامه عن تساهله حيلة ساذجة يخفى بها نكته
فازدادت رغبتنا في اذلاله وارغام أنفسه في التراب ،
وتبدل حالنا : لم نكن الى تلك اللبلة الاركاب سفينة
ينعمون بالتنقل بين الدعة والكسل ، فاذا بنا نتحول
فجأة الى أناس تملكهم الضراوة وشهوة القتال ، حين
جال في أذهانهم ان هذه السفينة التي تمخر عباب المحيط
قد تشهد مصرع زيننوفيك . . انه خبر يذاع من فوره

لاعب الشطرنج ٤٦

بالراديو على العالم اجمع . . ومما زاد في هياج نفوسنا هذا السر الغامض الذى احاط بمنقذنا المجهول ، وهذا التناقض الواضح بين غلو نواضعه وبجاجة كبرياء اللاعب المحترف .

من هو هذا اللاعب المجهول ؟ هل اتاح لنا الحظ أن نكتشف للعالم لاعبا عبقريا جديدا ؟ ام تراه بطل ذائع الصيت أخفى عنا اسمه لسر محجب ؟ وأخذنا ندير بيننا هذه الأسئلة وقد بلغ بنا الهياج قمته ، وكان كل احتمال نفرضه — وان شططنا في الخيال — لا يسعفنا في التوفيق بين تهيب الرجل المجهول . واعترافه المذهل ، بالرغم من أن تفوقه للبين في لعب الشطرنج يكنه . ولكننا كنا جميعا على اتفاق حول مسألة واحدة ، وهى رغبتنا بأى ثمن أن نحمل الرجل المجهول على قبول اللعب مع زينتوفيك ، وتكفل ماك كنور بأن يتحمل عنا بماله عبء المجازفة بالرهان ، وكنا قد علمنا حينئذ من أحد الخدم أن اللاعب المجهول من أبناء النمسا ، فعهد الى لائنى من مواطنيه أن أتقدم اليه برجائنا .

لم يطل بحتى عنه ، وجدته ناجيا بنفسه فوق ظهر السفينة . مسترخيا على أريكه وهو يقرأ ، وأخذت أتأمله مليا قبل أن أتقدم اليه أسند الى الوسادة رأسه البارزة عظامه ، كأنها يحس بشيء من النعب ، وراعنى من جديد شحوب وجهه بالرغم من أنه لم يتجاوز كثيرا مرحلة الشباب ، وحين رايت أبيضاض شعره لا أدرى لماذا خيل الى انه شاب قبل الاوان . فلما اقتربت منه نهض بأدب وحفاوة وقدم الى نفسه ، ذكر لى لقبنا هو من القاب الأسر النمساوية العريقة ، يشاركه فيه صديق كان لشوبرت الموسيقار العظيم ، وبعض

لاعب الشطرنج ٤٧

أطباء الامبراطور .

أخبرته برجائنا فبدت عليه دلائل الحرج ، واكتشفت أنه لم يكن يحسب قط أنه نازل بطلا من أبطال لعبة الشطرنج ، فكيف يحسب أنه نازل أشهر الأبطال ، وراعه الخبر لما بلغه منى ، واخذ يسألنى مرارا هل أنا وابق مما أقول ؟ وهل غريمه هو حقا بطل له مثل هذا الصبب الذائع ، وقد هون مسلكه على سفارتى ، ولكنى لما أحسست بفرط رفته رأيت من الأليق أن لا أذكر له شيئا عن تحمل ماك كنور غرامة المجازفة باللعب ضد زينتوفيك .

نردد السيد « ب » برهة طويلة ثم قال انه يقبل النحدى ، وأضاف بابتسامة من ورائها فكرة :
— قل للسادة أصحابك أن لا يعلقوا على فى غلو آمالا عريضة ، فالحق أننى أجهل هل أنا قادر أو غير قادر على أن اللعب دور شطرنج طبقا لقواعده وأصوله ، صدقنى ، لم يكن قط من قبيل التواضع الكاذب تأكيدى لكم بأننى لم أمس رقعة شطرنج منذ أن كنت طالبا فى المدرسة الثانوية ، أى منذ أكثر من عشرين سنة ، بل لم أكن حينئذ الا لاعبا مبتدئا لا خطر له .

قال قوله هذا بشيء كثير من البساطة فما شككت فى صدقه ، ومع ذلك لم يسعنى الا ابداء دهشتى من مقدرته على تذكر خطط أئمة أبطال الشطرنج الذين جاء ذكرهم على لسانه ، وقلت انه كان ولا ريب مهموما بالشطرنج على الأقل من حيث دراسته النظرية .

فلما سمع كلامى عادت من جديد نعتلى فمه ابتسامته العجيبة الحالة وقال :

— نعم ، ما كان أشد همى بالشطرنج ! أنت صادق فى عجبك ، ولكن خبرتى بالشطرنج قد اكتسبتها فى

لاعب الشطرنج ٤٨

ظروف معينة ، بل فريدة في نوعها ، انها حكاية معقدة ، كل نفعها أنها تقدم لك صورته عن ظروف مرت بنا ، ان صبرت نصف ساعة رويتها لك :

دعاني بإشارة من يده الى الجلوس على الأريكة التي تجاور أريكته ، كنا وحدنا ، وخلع السيد نظارته وبدأ حديثه :

لقد تفضلت وذكرت لى أنك من أبناء مدينة فينا ، وأتت على علم بلقب أسرتي ولكنى لا أحسب أنك سمعت بخبر مكتب الحمامة الذي كنت أديره أولاً مع أبى تم وحدى من بعده ، ذلك لأننا كنا لا نترافع في القضايا الشهيرة التي تروى الصحف أنباءها ، ولا كنا حريصين على زيادة عدد الموكلين ، وان شئت الحقيقة فاننا لم نكن نمارس مهنة الحمامة بمعناها في عرف الناس ، لا نذهب للمحاكم ، بل اقتصر عملنا على الاستشارة القانونية ، وعلى ادارة املاك الأديرة الكبيرة ، وكان أبى وثيق الصلة بها ، اذ سبق له أن دخل البرلمان نائباً عن حزب رجال الدين ، وأستطيع اليوم أن أفضى اليك — فقد زال النظام الملكي من النمسا — أن أغلب أفراد أسرة الامبراطور عهدوا لنا أيضا بادارة أموالهم ، وقد توارت أسرتي علاقتها بالقصر ورجال الدين منذ جيلين سابقين لجيلي ، كان أحد أعمامى طبيبا للامبراطور ، وعم آخر قسيسا ، فلم يكن يطلب مني بذل جهد الا في ادامة هذه الصلة الموطدة . واتصف عملى بالسكينة والهدوء والصمت . عمل ورثته عن آبائي ، لا يتطلب للمحافظة عليه الا أقصى درجات الكياسة وكنمان السر والأمانة الموثوق بها ، وكان أبى مضرب المثل في التحلى بهذه الصفات ، ونجح في أن يستنقذ لموكلبه قدرا كبيرا من ثروتهم بالرغم من

لاعب الشطرنج ٤٩

التضخم المالى والثورة .

فلما نولى هتلر سلطة الحكم فى المانيا ، وبدأ يتهب الأديرة والكنائس نولى مكتبنا عقد صفقات وانفاقات كثيرة من وراء الحدود ، وكان الغرض منها حماية موكلينا من مصادرة أموالهم . . أموالهم المنقولة على الأقل ، وكنت أنا وأبى فى ذلك الوقت نهجل دخائل سياسة روما وسياسة البيت الإمبراطورى ، ولا أظن أن الجمهور سيعرف هذه الدخائل فى يوم من الأيام ، ولكن شهرتنا بالأمانة وكتمان السر ، وحرصنا على نجيب اعلان صلنا بالأحزاب الملكية ، ثم بعدنا ازالة لافتة المكتب عن بابہ . . كل ذلك كان مدعاة لأن يجنبنا كل ريبة ، فلم تكن فى النمسا أتخذ جهة رسمية يخطر ببالها أن يرمد الإمبراطور السرى ينسرب عن طريق مكتبنا المتواضع ، الكائن فى الطابق الرابع فى إحدى عمارات فيينا . كأنه مكتب بريد سرى .

وكان النازى قبل أن يبدأ هجومهم على العالم قد اعدوا فى كل البلاد المجاورة لالمانيا أنصارا لا يقلون عن جيشها فى الخطر والتدريب . يصطفونهم من بين الممرورين والغاضبين ، وقلما يخلو منهم نظام من أنظمة الحكم أيا كان ، عملهم أن يندسوا فى كل مكتب وفى كل مؤسسة ، بل كان من بينهم جواسيس فى مكتب المستشار دولفوس ثم من بعده ، شوشنج وقد علمت فيما بعد سويلالاسف بعد قوات الأوان — أنه كان من بينهم جاسوس فى مكتبنا الصغير أيضا ، كان مستخدما صغرا ألحقناه بالعمل بناء على توصية قسيس ، فعلنا ذلك من أجل أن يبقى الظن بأن مكتبنا لا يتسغل بشيء إلا بالمحايه ، ثم لم نعهد لهذا المستخدم الا بعمل السعاة كالخروج لانجاز بعض المطالب الهينة والرد

لاعب الشطرنج . ٥

على الليفون وبرنبي اوراق لبست بذات خطر ، لم يكن من شأنه أن يفتح البريد وكنت أتكفل أنا نفسى بالدق على الالة الكاتبة لتحرير الرسائل دون أن أترك منها صورة فى المكتب ، وأحمل معى الى البيت كافة الوثائق الهامة ، ولا أقابل الموكلين الا فى الكنيسة أو ببت عمى . لم يبق للجاسوس شىء يتصيده فى المكتب ، ولكن شاء القدر السبىء أن ينبه هذا المستخدم أنه موضع ربية وأن العمل بجرى من وراء ظهره ، لعل أحد رجالنا قد زل لسانه فى غيبى ، وتحدث عن الامبراطور ذاكرا اسمه دون أن يلغز فيسميه « البارون برن » كما هو انفاقنا ، أو لعل الجاسوس فتح البريد غير آبه بأوامرنا على كل حال بدأت سلطات برلين وميونخ نراقبنا عن كتب ، قبل أن نساورنى اقل ربية فى انكشاف سرنا ، لم أتذكر الا بعد أن مضى زمن طويل ، وبعد أن قبض على ، كيف أن الجاسوس بدأ أيامه الأخيرة بمكتبنا يبدى مزيدا من الهمة والنشاط ، لا ينقطع الحاحه فى أن يتولى عنى وضع الرسائل فى صندوق البريد .

لا انكر اننى انخدعت به ، ولكن كم من دبلوماسى وكم من ضابط راح ضحية انخداعه بهذا الصنف اللئيم . وأخيرا أتيج لى أن أظفر بدليل مادى على أن الجستابو كان يلاحقنا بتبعه لنا منذ زمن طويل ، ففى الليلة الى قدم فيها المستشار شرشنيج استقالته ، ليطلع الصباح من بعدها على دخول هيتلر الى فينا ، جاء نفر من الحرس والقوا القبض على ، وكنت لحسن الحظ حين سمعت خطاب الوداع الذى أذاعه شرشنيج ، قد أسرعت باحراق كل الأوراق الهامة ، وكنت قد نجحت فى أن أسبق بدقيقة واحدة طرق حرس النازى على الباب ، وجمعت كل الوثائق التى تثبت وجود أموال

لاعب الشطرنج ٥١

خارج حدود النمسا ، بعضها يملكه الدبر الذى ينمى اليه وبعضها يملكه اننان من أسرة الامبراطور ، وخبأت هذه الوثائق فى سلة ملابس حملتها مريىى العجوز الامينة لسلما الى عمى .

قطع السيد « ب » حديه ليثعل سبجارة ، فأثار لهيب النقاب فمه ، فرأيت من جديد فعل عادة له كنت قد لحظته من قبل بدهشة ، وهو النواء طرف فمه كلما هاجت أعصابه ، انه النواء خاطف لا تكاد نراه العين ، ولكنه يضى على وجهه كله مسحة من قلق عجيب .
ثم أردف يقول : —

نحسبى الان ولا ريب سأروى قصة أخرى من قصص معسكرات الاعتقال ، وأن أطنب فى وصف ما لقيته من نعذب واذلال ، كلا . لم يحدث لى شىء من هذا ، اذ انهم سلكونى فى زمرة أخرى ، زمرة من طمع الحزب النازى فى انتزاع أسرارهم لا فى الانتقام منهم ، فما كان لشخصى الضعيف قيمة فى نظرهم — هم يريدون ان ينتزعوا منى أسرارنا تنفعهم فى محاربة خصومهم .
لم يزوجوا بزميرنا فى سجن أو معسكر اعتقال ، بل كانت موضع تكريم . فقد أنزلوا كل واحد من أفرادها فى حجرة خاصة فى فندق ، هو فندق مسروبول الذى اتخذه الجسنابو مقرا رئيسيا لهم . ونلت أنا أيضا — وأنا شخص مغمور — هذا الشرف العظيم .

حجرة خاصة فى فندق ! هل يباى لى أن أحلم بمعاملة أفضل من هذا ؟ ولكنها كانت أشد مكرا وقسوة طريقتهم فى اسكاننا حجرات خاصة ننعم بالدفء ، بدلا من الزج بنا فى معسكرات مكتظة نعانى الصقع ، انهم بذلك قد أسلمونا لوحدة مطبقة ، لم يفعلوا بنا شىئا ، بل اكفوا بتركنا والعدم وجها لوجه ، ومن المعلوم أن لا شىء

لامب الشطرنج ٥٢

يكرب النفس مثل الوحدة . فضرب نطاق من الفراغ حولنا ووضعنا في حجرة لا صلة بينها وبين العالم الخارجى هو أقوى فعلا في فتح أفواهنا من تعذيبنا بصقيع معسكرات الاعتقال .

لم أجد أول الأمر في حجرتي شيئا يفسد راحتى ، كان لها باب وبها فرأش وكرسى وحوض صغير وناقذة اشتبك عليها سياج من حديد ، ولكن الباب ظل مغلقا ليلا ونهارا ، كان محرما على أن أحصل على كتاب أو صحيفة أو ورق أو قلم ، وكانت الناقذة تطل على جدار عال مواجه لها .

لم أجد حوالى الا فراغا أنا غارق فيه ، وكانوا قد أخذوا ساعتى حتى لا أعرف مرور الوقت ، وأخذوا قللى حتى لا اكذب شيئا ، وأخذوا مبراتى حتى لا أستنزف بها دمى ، وكان محرما على أن أجد متعة هينة في تدخين سيجارة ، لا أرى أبدا وجه انسان الا وجه الحارس ، وكان مأمورا أن لا يوجه الى الحديث وأن لا يجيب اذا سألته ، كنت لأسمع قط صوت انسان .

هذا الوضع الذى حرم الحواس غذاءها طول الليل والنهار خلقتنى وحيدا يائسا ، منفردا أمام نفسى وأمام أربعة أو خمسة أشياء جامدة : المنضدة ، الفراش ، الناقذة . الحوض . كنت أعيش كالغاطسين في البحر داخل وعاء وسط خضم من الصمت العميق ، ولكن الفرق بينى وبينهم أن الحبل الذى يربطنا بالعالم الخارجى كان قد انقطع عندى ، ولم يبق لى أمل فى الخروج من غياهب الصمت العميق ، لم يكن هناك شىء أفعله أو أسمعه أو أنظره ، ليس من حولى الا فراغ مدوح ، فراغ لا حدود له فى الزمان والمكان .

لاعب الشطرنج ٥٢

أخذت أذرع الحجره جيئة وذهابا والأفكار تزرع
رأسى جيئة وذهابا بلا هوادة ، وعلى نمط واحد
لا يغير .

ولكن الفكر حين يحرم من مدد خارجى يظل يطلب
نقطة ارتكاز له والا دار حول ذاته دورانا جنونيا ، لأن
الفكر لا يتحمل الفراغ هو أيضا ينتظر من الصباح للمساء
ان يحدث شيء فلا يحدث شيء ينتظر من جديد ثم ينتظر
وبينظر ، والأفكار تدور ، وبدور فى رأسه ، الى أن تلتهب
اصداغه ، لا يحدث شيء ، ويبقى وحيدا وحيدا وحيدا .

دام حالى على هذا المنوال خمسة عشر يوما ، عشت
خلالها خارج الزمن وخارج الدنيا ، لو أندلعت حرب
لما عرفت بخبرها ، الوجود كله عندى لا يزيد عن
منضدة وباب وفراش وكرسى وحوض وناقذة ، وأربعة
جدران يثبت على ورقها نظرى ، كل خط فى نقشة قد
حفر فى عقلى من طول خبرتى به وتأملى له .

وأخيرا بدأ التحقيق ، كنا عرضة للاستدعاء فجأة
لا ندرى متى ؟ ابالليل أم بالنهار ؟ يقاد بنا عبر دهاليز
لا نعرف أين تؤدى ، تم ننتظر فى مكان ما ، ثم نجد
انفسنا فجأة أمام منضدة يجلس حولها نفر من الرجال
فى زى رسمى ، وعلى المنضدة كوم من الأوراق — داخل
ملفات لا نعرف محتوياتها ، ثم هذه الأسئلة الصريحة
تتلوها أسئلة مأكرة نخفى وراءها أغراضا أخرى ،
أسئلة ننصب لك الشرك ، واذا نحن نجيب على هذه
الأسئلة بمد يد غريبة نم عن العداء لنا ، وتقلب
الأوراق التى نهمل محتوياتها ، ويجرى قلم يضمر لنا
الشرب بخط أسطر فى محضر التحقيق فلا نعلم ماذا كتب .
ولكن أكثر شيء ازعجنى فى هذا التحقيق كان عجزى

لاعب الشطرنج ٥٤

عن نخمين مدى ما يعرفه الجسنابو عن اعمالى بفنسل جاسوسهم ، وأى شىء بقى يريدون معرفته منى ، وكنت كما قلت لك قد أفلحت قبل القبض على بدقيقة واحدة فى أن أرسل الى عمى مع مربيتى كل الوثائق ذات الخطر . كنت أسأل نفسى هل با ترى حملتها البها ؟ ما مدى علم المستخدم الجاسوس بأسرارى وفضحه لها ؟ هل وضعوا يدهم على رسائل لى ؟ هل ظفروا بشىء من فم قسيس مسكين جرى التحقيق معه بمهارة فى دير ندير أملاكه ؟

وانهالت على الأسئلة : ما هى الأسهم والسندات التى اشتريتها لهذا الدير ؟ مع أى بنك أتعامل ؟ هل اعرف فلانا أو فلانا ؟ هل تصلنى خطابات من سويسرا ؟ واذا كنت لا اعرف حق المعرفة مدى سابق علمهم بأسرارى فقد زلزلنى ادراكى أن كل اجابة منى قد تتعلق بها مسئولية جسيمة ، فلو نطقت بشىء لم يصل الى علمهم اكون بذلك باعثا بانسان الى القبر ، واذا غلوت فى أطباق فمى أضرت بنفسى .

لم يكن أسوأ ما لقيته هو التحقيق معى ، بل العودة الى العدم ، الى الحجرة ذاتها ، والمنضدة ذاتها ، الى الفراش بعينه ، الى ورق الجدران بعينه .

وكنت لا أكاد أعود الى خلوتى بأفكارى حتى أستعيد فى ذهنى مجرى التحقيق ، أفكر فى أحسن اجابة فاتتنى وكان ينبغى أن أرد بها ، وكيف ينبغى أن اجيب فى المرة القادمة لأستبعد الشك الذى انترته من قبل بعبارة ندت عن فمى بغير اناة أو تدبر .

كنت أغوص وأغوص الى الأعماق ، وامتنح كل اجابة لى سابقة ، وأعيد فى ذهنى كل سؤال وكسل رد ، وأحاول أن أقدر ماذا يمكن أن يكون قد سجله

لاعب الشطرنج ٥٥

محضر التحقيق ، وأنا عليم حق العلم ان هذا التقدير محال .

ما تكاد هذه الأفكار تنبعث في رأسي حتى نظل ندور فيه وتدور ، نشابك على نحو آخر دون بوقف ، للاحقني هذه الأفكار حتى في نومي .

وهكذا كان لا مفر — بعد أن ينتهي التحقيق — من أن يطيل فكري عذابه بقسوة فوق قسوة القضاة ، جلسة التحقيق عندهم نهايتها بعد ساعة من عقدها ، أما وحدني في الحجر فلا من على عذابي بنهاية ، ليس من حولي الا المنضده والفراش وورق الجدران والنافذة ، كل وسائل السلية معدومة : لا كتاب ، لا صحيفة ، لا وجه الا وجهي لا قلم بسح لي ان أسجل به خاطرا جال في ذهني واريد ان لا أنساه ، بل لأعود نقاب ألهو باشتعاله واطفائه ، لا شيء ... لا شيء .. لا شيء ...

ليس الا شيطان عبقرى قاتل للروح يهدى في العذيب الى وسيلة الخلوة داخل حجره فننق ، لو كنت في معسكر اعتقال لعملت ولا ريب في نقل الأحجار حتى تدمى يداي ، ويجمد البرد قدمي داخل الحذاء ، ولحسرت مع خمسة وعشرين رجلا في قبضة الصقبع والصفوثة ، ولكني كنت مع ذلك سأرى وجوه بشر وأنامل حقا ، وعربة نقل بدويه صفره ، كنت سأنظر الى شجرة ، الى نجم ، سأنظر — أخيرا — الى شيء جديد بدلا من هذه الحجره التي لا يطرا عليها طارئ ، فخليعة في نبانها المستقر وشبهها الواحد الذي لا ينفر ، ليس فيها شيء واحد بسنطيع أن يجذب اليه نظري وينقذني من أفكارى وخيالى المجنون واجزرارى المريض ، هذا هو عين ما يقصده جلادى ، أن نطبق على الأفكار

لامب الشطرنج ٥٦

حتى تخفنتنى ، بحيث لا يبقى لى الا أن الفظها لفظ
البصاقى — كما يقال — وأعترف ، أعترف لهم بكل
شئ . أفصح أصدقائى وأدلى للقضاة بما يريدون علمه .
أحسست بسبب هذا الارهاق المخيف أن قوة احتمال
أعصابى قد تراخت ، وحشدت بجزم أقصى قواى للبحث
عن مخرج .

أخذت — من قبيل خلق شغلة تلهينى — أتلو بصوت
مرتفع ما كنت أحفظه من قبل عن ظهر قلب ، مرددا
النص كما تسعفنى به ذاكرتى ولو خرج مضطربا ، أتلو
تصادم غنائية شعبية ، وأناشيد أطفال ، وفقرات من
هوميـر حفظنها فى المدرسة ، ونص مواد فى القانون
المدنى . ثم أخذت أحاول فرض مسائل حسابية لأصل
الى حلها ، وأختار خبط عشواء أرقاما ما ، وأظل أخلط
بينها بالجمع والطرح والقسمة ، ولكن وجدت قدرتى
على التفكير فى خلاء حجرتى مصابة بالشلل ، ولم أستطع
أن أركز ذهنى فى شئ اذ يستولى عليه من جديد بفكرة
واحدة تلاحقنى بالحاح هى : ماذا يعلمون ؟ ماذا قلت
بالأمس ؟ ماذا ينبغى أن أقوله فى المرة القادمة .
عشت فى هذا الجو الذى لا يحيط به وصف مدى
أربعة أشهر ، أربعة أشهر : كلمتان ما أقصر عمرها
نطقا وكبابة ، لا يسفرق النطق بهما الا أقل من ربع
بانية . ولا تطلب كنانها من الحروف الا النزر اليسير ،
ولكن كيف يأتى لانسان أن يعبر — حتى لنفسه وحده —
بالنطق أو الكتابة عن حياة تمضى أربعة أشهر خارج
معايير الزمان والمكان ؟ لن يفلح أحد أبدا فى التعبير
عن هذا الخلاء المطبق كيف يبلى ويحطم ، ولا وقع
منظر هذه المنضدة الأبدية وهذا الفراش ، هذا الحوض
الأبدى وهذا الورق على الجدران ، ما وقع هذا الصمت

لاعب الشطرنج ٥٧

المطبخ الذى قسرت عليه ؟ ما وقع مسلك الجندى الحارس وهو واحد لا يغير ؟ كل ما يفعله أن يقدم الطعام للسجين دون أن يلقى عليه نظرة واحدة ، أفكارى هى دائما واحدة لا تتغير ، تدور فى الفراغ حول رأس من انفرد بنفسه الى أن يصاب بالجنون .

دلننى علامات هيئة انزعجت لها أن عقلى قد بدأ يختل ، كنت فى مبدأ الأمر أحتفظ بوضوح ذهنى اذا مثلت أمام القضاة ، وادلى بأقوالى بهدوء وبدبر . وافرقت بنجاح فى ذهنى بين ما ينبغى وما لا ينبغى قوله ، أما الآن فأصبحت لا أقوى على النطق بعبارة ولو موجزة دون أن اتلعثم ، إذ أظلم وأنا انطقها أنبت نظرنى كالخاضع للنيويم المغناطيسى على قلم كاتب الجلسة وهو يجرى على الورق، كأنما أود أن أجرى فى اثره والأحق كلمانى . أحسست أن قوبى قد ضعفت واقتربت الساعة التى ادلى فيها — طلبا للنجاة — بكل ما أعلم ، بل بأزيد مما أعلم ، أفضى بأسرار أصدقائى وأفضحهم ، ولو لم يكن جزائى الا برهة عابرة من الراحة .

وذات مساء وأنا فى حجرى دخل على الحارس ليقدّم لى الطعام ، فاذا بى وهو يهيم بالانصراف أصرخ اليه بصوت مخنق :

— خذنى الى القضاة ، سأعترف بكل شيء ، سأقول لهم اين هى الوثائق واين هى الأموال ، سأقول لهم كل شيء ، كل شيء .

من حسن الحظ أنه لم يستمع لكلامى ، أو لعله أعرض عن سماعه .

كنت قد بلغت حافة الهاوية ، فاذا بحادثة تقع على غير انتظار ، رجوت أن يكون قبها خلاص نفسى ولو لزمان ما ، كانت حجرى قد شملتها عتمة غروب قائم

لاعب الشطرنج ٥٨

لبوم من أواخر أيام شهر يوليو ، انى أذكر بوضوح زمن الحادثة لأنه مرتبط في ذهنى برؤينى المطر وهو ينهمر على زجاج نوافذ الدهليز وأنا مقود للتحقيق ، أشير الى أن أبقي فى حجرة الانتظار ، اذ كان من بين قواعد الخطة أن انتظر ، يمضى على وقت وأنا فى انتظار الدخول الى القضاة . وتبدأ خطة زلزلة أعصاب المتهم بايقاظه فجأة فى عز الليل ، فاذا نمالك جأشبه وثشد عزمه استعدادا للتحقيق أبقوه بنظر ، ينظر بلا طائل ساعة وساعتين وثلاث ساعات من قبل بدء التحقيق ، كل هذا من أجل أن يسلم وهو صاغر قياد جسمه وروحه .

بقيت واقفا فى حجرة الانتظار لا أقل من ساعتين كاملتين ، حدث هذا يوم الخميس ٢٧ يوليو ، سأقول لك لماذا بقيت أذكر على وجه التحديد تاريخ ذلك اليوم : وجدت أمامى « تقويما » معلقا على الجدار ، لم أبه للخدر الذى دب فى ساقى وفى جذعى من طول وقفى — اذ كان الجلوس محرما على — وأخذت بدافع من التعطش للقراءة النهم بعينى رسم تاريخ اليوم على التقويم بحروفه وأرقامه — ما هى الا عبارة صغيرة لا تزيد عن « ٢٧ يوليو » ، ثم عدت الى الانتظار ، الى مراقبة الباب ، أسأل نفسى : ترى متى يفتح ؟ أفكر فى تخمين الأسئلة التى توجه الى هذه المرة وأنا عالم أن أسئلهم سنختلف عما أظنه .

وبالرغم من قلق الانتظار — كنت أحس بشيء من الراحة لانتقالى من حجرنى الى حجرة أخرى . . هى أكثر انساعا ، نيرها نافذتان ، ليس بها فراش ولا حوض ، ليس فى جدرانها شقوق مثل تلك التى رأيتها

لاعب السطرنج ٥٩

أكثر من ألف مرة في حجرى ، ولون الطلاء أيضا مختلف ، والكرسى ألامى غير كرسى حجرى ، على يسار الباب خزانة ملأى بالملفات ، ومشجب معلق عليه ثلاثة أو أربعة معاطف عسكرية مبللة بالماء هى معاطف جلادى .

هكذا أتيت لى أن أرى أشياء جديدة — أخرا وجدت شيئا جديدا ، والبهمنها نظرنى بنهم وهى تنسبث بها ، أخذت أأمل كل نية فى قماش المعطف ، وأنبه مثلا لنقطة مطر مستقره على ياقبه المبنلة ، وتملكنى شغف يبدو لك سخيفا : أن أظل أرقبها بلهف لأرى هل تنزلق عن مكانها أم يظل عالقة به ، بقيت أرقبها وأنا ألهث فنة من الزمن كأنما حياى معلقة بها ، فلما رأيها نسقط انتقلت الى عد الأزرار على كل معطف ، نهائيه على الأول والنانى وعشرة على الثالث ، ثم أخذت أقرن بين شاراتها . كانت نظرنى تنهل من هذه الأشياء الهينة ونرنوى وبلذذ بشغف لا يستطيع الكلمات التعبير عنه . ثم دقت نظرتى فجأة على شىء مختلف ، شىء انتفخ به جيب معطف فاقتربت وظننت أننى أنين تحت القماش المشدود شكلا مستطيلا بوحى بأنه كتاب ، كتاب . . . ارنعشت ركبناى . كتاب . كان قد مضى على أربعة أشهر لم أتناول خلالها فى يدي كتابا ، فبهرنى مجرد تصور وجود كتاب فى جيب المعطف ، كتاب أظفر فيه برؤية الكلمات المصطفة ، والصفحات ، والأوراق أقلبها كما أشاء ، كتاب يتيح أن أطلع فيه على أفكار رجل آخر ، أفكار جديدة ، عليها تشغلى عن أفكارى ، وأستطيع أن احتفظ بها فى ذاكرتى ، يالها من لقبة مثة مسعدة معا وكان نظرتى جذبها سحر مغناطيسى فتسمرت على الجيب المنتفخ الذى بان بداخله شكل

لاعب الشطرنج ٦٠

كتاب ، واتقدت نظرتي كأنما ترصد أن تحدث ثقباً في جيب المعطف فلم أتمسالك نفسي وتقدمت خطوة ، سرت النار في أصابعي لجرد التفكير في اننى سألمس كتاباً ولو من تحت غطاء ، واذا بى أجد نفسي وأنا لا أشعر أتقدم خطوة أخرى .

لم ينتبه الحراس لحسن الحظ الى غرابة مسلكي ، لعلمهم رأوا من الطبيعي أن يعتمد رجل ظل واقفا مدى ساعتين الى الاستناد الى جدار الحجرة .

نجحت في الاقتراب من المعطف ووضعت يدي خلف ظهرى لالمس بها الجيب خلسة ، ودلننى جسى له أن بداخله جسماً مستطيلاً غير جامد يسمع له عند الضغط عليه حسيس خافت ، كتاب . أى نعم كتاب ولا ريب . ولعت في ذهني فكرة كالبرق ، حاول أن تسرقه ولعلك تنجح فتحبئه في جبرتك وتقرأه ثم تقرأه ، انك واجد أخيراً شيئاً جديداً .

لم تكد هذه الفكرة تخطر ببالى حتى سرت في كيانى كالسهم الزعاف ، أخذت أذنأى تطنان ، وقلبي يخفق وبدأى المتلجتان مشلولتان .

ولما انقضت بواذر دهشتي أخذت التصق بالمشجب بحركة محتالة مأكرة ، وأنا لا أرفع نظرى عن الحارس ، ورفعت الكتاب شيئاًفشيئاً خارج الجيب ، ها هو ذاينفالت أطبقت عليه يدي فاذا هو كتاب صغير قليل الصفحات ، حينئذ تملكى الخوف مما فعلت وتمنيت أن لا أكون قد فعلت ، ولكنى كنت حينئذ قد أصبحت عاجزا عن التراجع واصلاح زلتى ، سعيت — مبقيا يدي وراء ظهرى — حتى أفلحت في دس الكتاب في سروالى من تحت الحزام ، وأخذت أدفعه برفق حتى استقر على قمة فخذى ، وضع يتيح لى أن اضغط على الكتاب

لاعب الشطرنج ٦١

بيدى حين الصقها بزيق سروالى كما تلزمنى مشيتى
العسكرية المفروضة على .

أصبح أمامى الآن أن أعرف مقدار نجاح هذه الحيلة ،
فابتعدت عن المسجّب ومثيت خطوة وخطوتين وثلاثة
نجحت حيلتى. ولم يسقط الكتاب ما دمت لاصقا يدي
على زيق سروالى ناحية الحزام .

ثم بدأ التحقيق معى ، فاقترضانى جهدا يفوق كل
جهد سابق ، لأن كل اهتمامى لم يكن منصرفا الى
التحقيق ، بل مركزا على الكتاب وعلى حيلتى فى
امساكه داخل سروالى .

ومن حسن الحظ أن جلسة التحقيق كانت قصيرة
ذلك اليوم وعدت الى حجرتى بالكتاب سالما غانما ،
لا أحب أن أطيل عليك بذكر ما حدث بالتفصيل ، يكفى
أن تعلم أن الكتاب انزلق من موضعه وأنا أسير فى
الدلهيز ، وكان لابد لى ن أزعم سعالا طارئا قد استبد
بى وقوس ظهري . زعمت هذا من أجل أن أميل على
ركبتى وأزحج الكتاب خلسة لأعيده الى سابق مكانه ،
ولكن هيهات لى أن أنسى تلك اللحظة التى عدت فيها
الى حجرنى فأجدنى وحيدا — ومع ذلك فى رفقة لا تقدر
بهمن .

أنت تحسب ولا ريب أننى سارعت حينئذ الى اخراج
الكتات من مخبئه لأتصفحه وأقرأه . « كلا » لم أفعل
شئبا من ذلك ، أن مجرد وجود هذا الكتاب معى فرحة
غمرت قلبى فأردت أولا أن أستمتع بها الى أقصى مداها،
وأخرت عمدا لحظة تصفحى للكتاب لأسبح فى أحلام
لذيذة تطوف بمضمونه .

تمنيت بادىء الأمر أن تكون حروفه دقيقة جدا
وصفحاته ملأى بالأسطر والكلمات مطبوعة على ورق

لاعب الشطرنج ٦٢

رقيق حتى أظفر بقدر كبير أقرأه . وممنيت أيضا ان يكون كتابا يعالج موضوعا عويصا يبطلب لفهمه جهدا عقليا كبيرا ، أو موضوعا يلذ حفظه عن ظهر قلب ، ديوان شاعر مثلا . وجبذا لو كان — بالشطط أحلامي — ديوان جوته أو الياذة هوميرو وأخيرا غلبني فرط لهفتي وهياج ارتقابي ، فرقدت على الفراش في وضع بخفي حركة يدي بحيث لا أنير انبياه الحارس اذا دخل على فجأه ، وأخرجت الكباب بيد مرعشة من تحت الحزام .

ما كدت ألقى اليه نظرة حتى صرعتني الحسرة وخيبة الأمل ، هذا الكتاب الذى جازفت باختلاسه أعظم المجازفة ، معرضنا نفسى لافطع الأخطار ، والذى الهب رأسى ورفع أحلامى الى عنان السماء ، لم يكن الا كتابا عن لعبة الشطرنج . ولو كنت غير حبيس فى حجرة مغلقة لطلوحت بهذا الكتاب فى غيظ شديد ، وألقيت به من النافذة ، فما انتفاعى بمثل هذا الكتاب ؟ قد سبق لى وأنا فى المدرسة الثانوية - شأن بقية زملائى - ان لهوت فى يوم غلبنى فيه الملل بنحريك قطع الشطرنج فوق الرقعة ، فكيف أنتفع بكتاب لا يتضمن الا دراسة نظرية لهذه اللعبة ، وكيف يتسنى للعب دون شريك بل دون رقعة الشطرنج وقطعه .

وأخذت أنصفح الكتاب وأنا ضائق الصدر آملا أن أجد فيه على الأقل سطورا تقرا ولو كانت قليلة ، مقدمة فى أوله او تنبيهات الى القارئ . ولكنى لم أجد فيه الا رسوما لأدوار شهيرة ، تحتها رموز لم أفهمها أول الأمر ، ب ، ج ، هـ ، وهكذا . كانت بمثابة رموز جفر لا أملك مفناحه .

وقليلا قليلا فهمت أن الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، الخ تشير الى المربعات الرأسية وأن الحروف ا ، ب ، ج ، د ، الخ تشير الى المربعات الأفقية وباقتران الرمزين يمكن تحديد موضع القطعة وكلما تحركت من مربع الى مربع ، هذه الرموز هى بمنابله لغة خاصة .

فقلت لنفسى لعلك تستطيع أن تتخذ من نسيء فى حجرتك بيديلا للرقعة تم تحاول أن تلعب هذه الأدوار الوارد ذكرها فى الكتاب ، وانتبهت الى أن فرائس

لاعب الشطرنج ٦٤

غطائي مرسوم لحسن الحظ على هيئة مربعات فاذا طبقه بعناية صح ان يكون رقعة شطرنج من ٦٤ مربعا خبات الكتاب نحت الحثية بعد ان مزقت اول اوراقه ثم نزعته من الخبز الذي يصرف لى لبابته وعجنت منها اشكالا على هيئة قطع الشطرنج كلها ، لم تكن مشابهتها للاصل تامة ، ولكنى نجحت بعد مشقة كبيرة ان اضعها على غطاء فراشى واحركها طبقا لنص الكتاب .

ومع ذلك حين حاولت ان اتم الدور وجدنى عاجزا عن المضي فيه الى النهاية ، لانى كنت اخلط بين هذه الاشكال المضحكة التى انخذها من لبابة الخبز ، ذلك اننى لم اسطع ان افرز منها نصيب للون الاسود الا يفضل علامة هيئة التمسنها من غبار حجرتى ، فاضطرت ان اعيد الدور من اوله عشرًا وعشرين وتلاثين مرة ، ومن ذا الذى يملك من الوقت اكثر مما املك ؟ ومن ذا الذى يقدر على ان يفوقنى فى اللهفة والصبر معا ؟

وبعد ستة ايام نجحت فى ان اتم الدور . ثم بعد ثمانية ايام لم اعد فى حاجة الى هذه الاشكال المضحكة لاحدد مواضع القطع وهى تنتقل حركة بعد حركة الى ان ينم الدور ، وبعد اسبوع استغنيت ايضا عن غطاء فراشى . ذلك انى حين بدأت اقرأ رموز الكتاب ب ١ ج ٢ ، ه ٨ الخ الخ كنت ادرك دلالتها ولكنى اعجز عن تصورها لأنها ليست من واقع محسوس ، ثم أصبحت اكنى بتصورها فى مجال الخيال وحده ونم اقتتال احتياح النصور من الواقع الى الذهن وحده ، فترنسم الرقعة فى ذهنى ، وكذلك القطع أيضا ، بل سنحرك طبقا لأوامر الكتاب فى ذهنى أيضا ، أصبحت كالموسيقى الجرب تكفيه نظرة واحدة الى النوتة حتى

لاعب الشطرنج ٦٥

يسمع من فوره اللحن الأساسى وما يصاحبه من أنغام هارمونية .

وبعد تدريب استمر خمسة عشر يوما استطعت أن أرسم فى ذهنى سير كل الأدوار — الواردة فى الكتاب وأدركت حينئذ أى نعمة جلييلة خلقتها على سرتى له ، أصبحت أملك وسيلة لأعمال الفكر ، وسيلة لانمرة لها قد تقول هذا ، ولكنها مع ذلك تحررنى من أسر العدم . فقد أصبحت أمتلك بفضل هذه الأدوار المائة والخمسين سلاحا ماضيا ينقذنى من رتابة الزمان والمكان .

ولكى أحفظ بطرانة شغلتى الجديدة ، قررت أن أضع نظاما ما أقسم به يومى قسمين ، دوران العبهما فى الصباح ودوران فى العصر ، ثم إعادة سريعة بالليل للدوار الأربعة . هكذا نظمت وملات فراغه بدل أن أنرك نفسى عائنا لا تقودنى الا نزواتى ، ولم أحس بارهاق ، لأن لعبة الشطرنج تختص بميزة عجيبة هى أنها لا تتعب الذهن ، بل بالعكس تجدد صفاء ونشاطه . ذلك أن اللاعبين يركز كل قواه الذهنية فى حيز محدود ، حتى لو كانت مشكلته عويصة .

وكنت أول الأمر أنقل القطع وكأن الكتاب هو الذى يحرك يدى ولكنى بعد ذلك بدأت أنتبه الى الفكر المسير لهذه الحركات ووجدت فى اننهاى هذا لذة كبيرة ، وأدركت ما فيه من نكاء وحيلة لطيفة فى الدفاع والهجوم . ووجدت فى نجيع القطع بترتيب معين فنا وأصولا نفذت الى أسرارها ، بل استطعت بعد قليل أن أتبين خصائص أسلوب كل لاعب شهير ، كما يتبين الذواقة الخبير وهو يتلو أبياتا قليلة من الشعر أى شاعر نظمها .

هذه اللعبة التى لم أجد فيها أول الأمر الا وسيلة لقتل الوقت أصبحت عندى متعة ذهنية لذبة ، ووجدتني

لامب الشطرنج ٦٦

في صحبة جميلة تنفذني من وحدتي ، وأنا أعاشر بذهني
أئمة الشطرنج من أمثال اليكين ولاسكار وبوجولجوبوف
وتاتاركوير .

اكتسحت تيارات من التجدد ما في حجرتي من ركود
صامت ، وعاد لذهني اطمئنانه بفضل سلامة المنطق في
هذه التمريعات النى شغلتنى ، بل ان التزام هذا المنطق
بحدود واضحة لا يخرج أبدا عنها أضفى على ذهني
صفاء جديدا سرعان ما ظهر في التحقيق . فقد دربتني
رقعة الشطرنج — وأنا لا أدري — على احكام خطتي في
التحقيق وتفادى كل فخ ومكر ، وأصبحت قواى
لا تتضعضع أمام القضاة ، وخيل الى أنهم بدأوا ينظرون
الى باحترام ، لعلهم تبادلوا العجب فيما بينهم ، وحاروا
في تعليل سبب ثباتى بصلافة على حين يتحطم الآخرون
بين أيديهم .

طالت ثلاثة أشهر تقريبا هذه الفترة السعيدة في
حياتى ، حين كنت لعب هذه الأدوار المائة والخمسين
التي وجدتتها في الكتاب ، ثم فرغت جعبتى ووجدت نفسى
من جديد في قبضة العدم ، فان لعب الدور الواحد
عشرين أو ثلاثين مرة يفقده طرافته ويستنفد سحره .

فما جدوى اللعب اذا كنت أحفظ من قبل عن ظهر
قلب كل حركة ، الحركة الأولى تعقبها الحركة الثانية
على التو ، هو عمل آلى ، لا يمدنى بمفاجأة أو مشكلة
عويصة أعمل لعلها ذهني .

وكان غير متاح لى أن أجدد هذه المتعة التي أصبحت
لا أستغنى عنها الا اذا عثرت على كتاب جديد في
الشطرنج ، يتقدم بى خطوة أخرى ، ولم يبق لى من
مخرج الا أن أخترع أدوارا أخرى حاولت أن أعبها بينى
وبين نفسى ، أو ان شئت ضد نفسى .

لاعب الشطرنج ٦٧

لا أدري اذا كنت أنت قد فكرت من قبل في أثر الشطرنج — ملك الالعاب — على من يمارسه وكيف يجد نفسه أسير مزاج فريد ، انه لعبة لا دخل للحظ فيها ، كل سحرها كامن في مسألة واحدة : هي النزال بين ذهنين ، كل منهما له خطته المضمرة وأسلوبه ، ان هذه المعارك العقلية تنجم من أن صاحب اللون الأسود لا يعرف خطة صاحب اللون الأبيض ، فيحاول كل منهما أن يحرز مرمى غريمه ليفسده عليه .

فاذا كان الغريمان هما شخص واحد فانه سيجد نفسه في تناقض : كيف يجمع بين اتخاذ دور اللاعب صاحب الدور الأبيض ويرسم خطته ويستر هدفه ، وبين اتخاذه دور صاحب اللون الأسود ويزعم لنفسه أنه ينسى أو يتجاهل سبل علمه بخطة غريمه ، حتى لا تتأثر خطته بسابق علمه هذا ؟ . ان هذا الازدواج في الفكر يتطلب ازدواجا فيه انفصال تام بين وعى ووعى ، وهذا يدل على أن الإرادة قادرة على حجز ملكات العقل بعضها عن بعض ، كما تفصل في الآلة بعض أجزائها عن بعض .

وحملنى اليأس على أن أسلم نفسى لهذا العبث عدة أسابيع ، اذ كانت ظروف معيشتى تفرض على هذا الازدواج في ذهنى بين نفسى وأنا العب باللون الأبيض ، وبين نفسى وأنا العب باللون الأسود . لا نجاة لى الا بهذا أن أردت أن لا يحطمنى العدم المخيف الذى يحيق بى من كل جانب .

مال السيد « ب » الى الوراء وأسند رأسه الى الأريكة ، ثم أغمض عينيه لحظة ، وخيل الى أنه يحاول اقضاء ذكريات مزعجة ، وغلبته عادته التى استوتوقت

لاعب الشطرنج ٦٨

نظري ودهشت لها من قبل ، فالتوى طرف فمه دلالة على هزة أعصابه ، ثم اعتدل محدثى واستطرد :

أظن أن حكايتي الى الان قد بدت لك واضحة ، ولا أدري اذا كان هذا سيكون حالها فيما بقى منها . ان شغلنى الجديدة كانت تفرض على توترا ذهنيا شديدا ، أصبح من المحال معه أن أمك قياد نفسى ، لعلنى كنت أجد مخرجا من مأزقى - وان يكن ضئيلا - اذا أتيت لى أن اجلس الى رقعة تلمسها يدي ، بحيث يتأتى لى أن أتحول من عالم الخيال الى عالم الواقع - أمام رقعة وقطع شطرنج أحركها فترجم سير أفكارى ويتاح لى التنقل بجسمى من طرف المنضدة الى طرفها المقابل ، وأحكم بذلك على سير اللعب تارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأبيض وتارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأسود .

ولكنى كنت مجبرا على أن أنزل خصما هو أنا ، أو ان شئت أنزل نفسا أنتزعها من نفسى وأفترض وجودها ، وكان هذا الازدواج يتطلب منى أن أرسم بذهنى صورة واضحة لتوالى الحركات وما يجده كل لاعب فرصة متاحة أمامه ، بل أن أرسم فى ذهنى أيضا - وقد يبدو لك هذا القول من قبيل الخرافة ست أو سبع حركات قادمة للاعب من أجل أن أرسم مثلها للاعب الاخر ، وما هذان اللاعبين الا أنا .

أصبحت صاحب ذهنين منفصلين واحد ابيض والآخر أسود ، فبهذا وحده أستطيع أن لعب بالخيال فى فراغ ، وأن أرسم فى الفراغ أيضا حركات كل خصم من الخصمين طبقا لخطته .

وكان اكبر خطر يتهددى لا يكمن فحسب فى هذا الازدواج الذهنى داخل نفسى ، بل فى أن المعركة كلها

لاعب الشطرنج ٦٩

لا تجرى الا في عالم الخيال . كادت قدمي تنزلق فجأة
واتردى في هوة الجنون .

كنت من قبل — اذا أعدت دورا من الأدوار الشهيرة
في الكتاب — لا أقوم بعمل يزيد عن نقل صورة عن اصل ،
لا يتطلب مني جهدا يفوق جهد مذكر قصيدة أو نص مادة في
حدود ضيقة ، داخل ذهن تربيته خاضعة لنظام وقواعد
شأن تربية التلميذ في المدرسة .

وداومت في غير لهفة واضطراب على لعب دورين
في الصباح ومثلها في المساء ، وأصبح اللعب شغفتي
المألوفة وكنت اذا هفوت أثناء اللعب أو ترددت طلبت
النسخ والعون من الكتاب .

وإذا كنت قد وجدت في هذه الشغلة نجاتي فانما يرجع
الفضل الى أنني كنت أنا نفسي غير نازل في الميدان ،
لا يهمني في شيء أن يكسب الأبيض أو الأسود ، انه
نزال بين لاعبين شهيرين يبتغى كل منهما الوصول الى
مرتبة البطولة ، أما لذتي أنا فهي لذة المتفرج أو الخبير
الذي يراقب بمنعة سير المنازلة وبراعتها وجمالها .

وفي اللحظة التي أبدا فيها هذا اللعب المزدوج ، كنت
اعتبر بلا وعي مني أن المسألة ليست مسألة تسلية ،
بل مسألة تحد سافر ومضهر ، وأن هناك نزالا بين
اللون الأبيض الذي هو أنا ، وبين اللون الأسود الذي
هو أنا . كل منهما يريد الانتصار على الأخران ان رسم
ذهني للحركات القادمة للون الأبيض يلهب فكري وأنا
العب باللون الأسود ، كل خصم من الخصمين داخل
نفسي يجمع بين الفرح والضيق حين يرتكب الآخر
هفوة .

حياة لا معنى لها انها كانت كذلك لو انها كانت لرجل
من سوية البشر ظروفه سوية أيضا ، انها حكاية

٧٠. لاعب الشطرنج

لا تصدق حكاية كيف تؤدي هذه الحالة الى فصام ذهني والى ازدواج في الشخصية عسير على الناس تصوره ، ولكن لا تنس أنني كنت رجلاً قد تم انتزاعه بقسوة وعنف من الجو الذي كان يعيش فيه واعتاده ، كنت سجيناً بريئاً ، تفترسه الوحدة بعذابها منذ ، أشهر ، رجلاً تراكم الغضب في قلبه دون أن يباح له صبه على شيء أو على رأس إنسان ، لم تكن أمامي من تسلية الا هذا اللعب السخيف مع نفسي ، وصببت فيه بعنف سخطي وتلهفي على الانتقام ، كان بداخلي رجل يريد أن يذاع عن حقوقه فلا يجد له منزلة الا مع هذا الخصم الذي يلاعبني وما هو الا أنا ، لذلك أثار في هذا اللعب هياجاً هو أشبه بالجنون ، كنت أستطيع في مبدأ الأمر أن ألعب بهدوء وأثريث بين الدورين لأستريح قليلاً ، ولكن سرعان ما أبت أعصابي المتوترة أن تسمح لي بالثريث ، فاذا لعبت باللون الأبيض ناداني اللون الأسود والح على أن اللعب به ، وما يكاد الدور ينهي حتى يهتز نصف نفسي رغبة في أن أتحدى النصف الآخر ، إذ كان بين جنبي دائماً لاعب خاسر يجار بطلب الانتقام .

لا أستطيع أن أحدد ولو على وجه التقريب عدد الأدوار التي لعبتها على هذا النحو وأنا متكالب لا أهدأ ، ربما لعبت ألف دور ، وربما أكثر ، كنت كمن تملكه شيطان لا خلاص منه ، ليس في رأسي طوال اليوم الا « كئس الملك . مات الملك » ، وعيني لا ترى الا بياض وقيلة وقلاعا ، كل كياني واحساسى مركزان على مربعات قطعة شطرنج .

كان أثر اللعب على أول الأمر هو الفرح ، ثم سرعان ما انقلب الفرح الى تلهف عنيف ، والتلهف الى انصياح الأسير ، ثم الى لونة وهوس فهياج جنوني يلفني بالليل

لاعب الشطرنج ٧١

والنهار . لا شيء يشغلنى الا الشطرنج ومسائله وقطعه ، اسنقظ أحيانا بالليل والعرق يتصبب من جبيني فأتبين أننى كنت وأنا نائم لم أنقطع عن اللعب ، وإذا رايت فى الحلم أناسا من البشر لا أجدهم يتحركون الا حركة الفرس أو الفيل أو القلعة .

واختلط على فكرى حين كنت أمثل أمام القضاة ، وخيل الى أننى لم أنطق فى الجلسات الأخيرة الا بكلام مبهم غامض ، بدليل أن القضاة تبادلوا النظرات فيما بينهم . هم ينبعون التحقيق ويتشاورون اما أنا ففكرى مشغول بشيء واحد هو انتظارى بدافع من هيام لا ينقطع نهمة لحظة أن أرجع لحجرتى لأعود الى اللعب الجنونى ، اللعب دورا ثم دورا .. كل معوق عن اللعب يغيظنى ولا أطيقه ، فأنملل اذا دخل الحارس حجرتى ليكنسها مع أنه لا يبقى بها أكثر من ربع ساعة أو حتى حين يدخل ليقدم لى الطعام فلا يمكث الا دقيقتين ، وربما تركت الطعام فى الطبق الى المساء دون أن أمسه اذ كنت قد نسيت أن آكل . لا شيء يرهقنى الا عطش شديد يلهب احشائى ، لعل مرجعه هو ما يصيبنى اللعب به من الحمى ، أو هو من أثر زحمة الأفكار وتصادمها فى رأسى . كنت أشرب الاناء كله جرعة واحدة ثم أناشد الحارس أن يأتى لى بمزيد ، ولا أفرغ من الشرب حتى يجف حلقى من جديد لشدة العطش .

وازداد الهياج حتى بلغ درجة أصبحت معها لا أطيق الجلوس على الكرسي لحظة لا أشغل نفسى طول النهار بشيء الا باللعب ، وأن أذرع الحجره جيئة وذهابا بخطوة نزداد سرعة وعجلة كلما ازداد اقتراب الدور من نهايته ان شهرة كسب الدور والانتصار ، الانتصار على نفسى انا تحولت الى هوس وهياج جنونى للانتصار ،

لاعب الشطرنج ٧٢

للانصرار على نفسى . تحول شيئاً فشيئاً الى نوع من الهياج الجنونى فأجد جسدى ينتفض من شدة اللهفة اذ ان كل لاعب من اللاعبين الاثنيـن داخل نفسى يتلملم اذا رأى غريمه لا يسرح كما يهوى هو فى اللعب . كل منهما يلاحق الآخر ويؤنبه وهو حائق عليه ، بل كنت انا نفسى اشارك فى هذا الحنق — قد يبدو لك هذا القول غاية فى السخف . اذا رايت احد اللاعبين يتلثا وازعق له : هيا هيا اللعب بسرعة ، بسرعة .

أعلم اليوم ولا ريب أن حالتى آنئذ كانت حالة رجل أصيب بمرض عقلى سافر ، لا اسم له عندى الا « هوس ادمان الشطرنج » على غرار هوس ادمان الخمر ، واظن أن كتب الطب لم تدرجه بعد بين الأمراض العقلية، وكانت هذه اللوثة قد سممت روحى وكيانى ، فلحقتنى الهزال واضطرب نومى .

وكنت أجد جفنى حين استيقظ فى ثقل الرصاص فلا أفنحهما الا بمشقة ، وزاد ضعفى حتى أن يدي أصبحتا لا تقويان على رفع كوب الى شفتى الا بارتعاش وجهد بالغ ، ولكن ما أكاد أبدأ اللعب حتى أجد نشاطى يتقدبداضع من قوة وحشية ، أذهب وأجىء ويـداى مضمومتان ، وأسمع أحيانا كثيرا وكانما من خلال ضباب ملوثة بالحمرة — صوتى أنا يأنينى من بعيد هاتفا بلهجة جافة قبيحة « كئس الملك . مات الملك » .

لا أستطيع أن أصف لك اليوم كيف حدثت الأزمة . غاية ما أعرفه أننى استيقظت ذات صباح على حال غير حالى المألوفة لى كل يوم ، أحسست أن جسدى قد نجا من اسنبدادى وشاق له أن يبقى مسترخيا فى الفراش وشعرت بنعب شديد لم أعهده من سابق

لاعب الشطرنج ٧٣

منذ شهور ، هو الذى أثقل جفنى وأذاقنى سعادة كبرى ، هى سعادة الشعور بالراحة وأنقشاع العناء ، فلم أشأ أن أفتح عيني على الفور وبقيت بضع دقائق على هذا الحال أتنعم فى كسل لذيذ باسترخائى فوق فراشى .

وفجأة خيل الى اننى أسمع من خلفى اصوات اناس نتدفق فيها الحرارة والحياة ، ويدور على السنتهم كلام هادىء هيهات لك ، أن ننصور مقدار حبورى — أنا الذى لم أسمع منذ شهور من قضائى الا لهجة جافة قبيحة فقلت لنفسي : أنت تحلم . أنت تحلم فاياك أن تفتح عينيك ، وأدم عليك دنيا الأحلام بدلا من أن نعود ترى من جديد حجرتك الملعونة والكرسى والحوض ونقش الورق الراسخ كالأزل . . أنت تحلم ، استمر فى حلمك .

ولكن حب التطلع غلبنى ، ففتحت عيني على مهل وبحذر ، وبالشدة العجب ! وجدت نفسى فى حجرة أخرى حجرة أفسح من حجرتى ، يدخل اليها النور حرا من خلال نافذة ليس عليها سياج من حديد ، ورأيت من ورائها — بدلا من الجدار الكثيب الذى طالما ألفتة — أشجارا خضراء يراقص الريح أوراقها ، الحجرة مطلية بلون أبيض لامع ، وغطاء الفراش أبيض أيضا ، نعم ، حقا كنت فى فراش آخر غير فراشى ، فراش جديد على ، اننى اذن لم أكن أحلم ، فما هى ذى اصوات الناس تتحدث برفق خلفى .

لا شك اننى هجت حين فوجئت بهذا كله ، اذ انجھت نحوى على الفور خطى مسرعة ، واقتربت منى امرأة على رأسها غطاء أبيض تمشى مشية نشطة ، انها ممرضة !

لاهب الشطرنج ٧٤

أخذتني هزة من الفرح والسرور اذ كنت لم أر امرأة منذ سنة . لاريب أننى حملت الى هذا الطيف الجميل بنظرات فيها توهج السعادة ولها لهيب، اذ قالت الممرضة لى « اهدا . اهدا ولا تتحرك » لم أكن ألقى بالى الا لسماع نبرة صوتها لأنها — أخيرا ! — نبرة صوت انسان ، اذن فالدنيا لا يزال بها اناس هم غير قضاة وغير جلادين ، لا يزال بها — ياللمعجزه ! هذه المرأة ذات الصوت الرقيق العطوف الذى يكاد ينطق بالحنان . وثبتت نظرتى على هذا الفم الذى نحدث الى بطيئة ، اذ ان هذا العام اللعين الذى قضيته فى حجرتى كان قد انساني أن الطيبة لم تمح من عالم البشر .

واينسبت الممرضة لى ، نعم ابتسمت اذن فالدنيا لم تخل من اناس يبتسمون . ابتسمت ثم وسعت اصبعها على شفثتها محذرة لى ، ثم ابتعدت .

أفتأتنى لى أن أطيعها ؟ عصيتها — على الخسد — وبذلت جهدا كبيرا من أجل أن أعتدل وأجلس فوق الفراش لأنأملها بنظرتى، لا تأمل مرة أخرى هذا المخلوق السمع الذى هبط على هبوط المعجزات ، وأردت أن أستعين بيدي فلم أستطع ، اذ كانت اليمنى مختفية فى لفائف من قمائش ابيض ، لا شك أنها ضماد . تأملتها أول الأمر بدهشة تم بدأت أدرك على مهل أين أنا ، وأفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث لى ، لاريب أنهم أصابوا يدي بجرح او لعلى جرحنها أنا نفسى وهذا هو سبب وجودى بالمستشفى .

وزارنى طبيب عصر ذلك اليوم ، رجل شيخ طيب . لم يكن اسمى مجهولا عنده ، وتحدث عن عمى طبيب الامبراطور بكل احترام . وأحسست على الفور أنه

لاعب الشطرنج ٧٥

يريد لى الخير ، ووجه الى أبناء الحديث أسئلة عديدة من بينها سؤال عجيب له ، اذ قال لى :

— هل أنت متخصص فى الكيمياء أو الرياضة ؟
فنفيت له ذلك فتمتم .

— عجيب ! انك كنت تنطق فى هذيانك بأرقام وحروف مثل ج ٣ و ٨ عبارات لم نفهم نحن منها شيئا .
سألته عما حدث لى فابتسم ابتسامة غريبة وقال :
— شيء غير ذى خطر ، انها أزمة عصبية حادة .
ثم تمتم بصوت خافت وهو يلقي من حولى نظرة مستريية .

— هذا شيء طبيعى ، فأنت بقيت هناك منذ ١٣ مارس . اليس كذلك .

أومات له برأسى نعم ، فغمغم .

— هذا ليس بالغريب . انه متوقع من خطئهم ، ولست انا الأول ، ولكن دع عنك الان كل قلق .
احسست من لهجته ونظرته الى اننى اصبحت فى يد مأمونة .

وفى زيارة له اخرى بعد يومين أخبرنى بما حدث ان الحارس سمعنى وأنا أتحدث فى حجرتى بصوت مرتفع يشبه الصراخ ، فظن لأول وهلة ان بها معنى رجلا غريبا ، وأننى تلاحمت واياه فى عراقك شديد ، لم يكد الحارس بفتح الباب ويدخل حتى هجمت عليه وكنت اصرخ صرخات وحشية .

— هيا . هيا أيها الوغد ، أيها الجبان .

ثم حاولت أن أطبق يدى بعنف على رقبته فصرخ يطلب النجدة وحمّلونى الى الطبيب فأفلحت وهم سائرون بى فى أن أتخلص من قبضتهم — وقذفت بنفسى الى نافذة الدهليز فى نوبة من الهياح الجنونى ،

لاعب الشطرنج ٧٦

فكرت زجاجها وأصابني بجرح في يدي — ها أنت
 ذا نرى اثره الى اليوم — كنت أصبت بشيء يشبه
 الحمى المخية حين نقلوني الى المستشفى ، ولكنى عدت
 سريعا الى وعبي . .
 وهمس لي الطبيب الطيب القلب .

— بطبيعة الحال لن أقول لهؤلاء السادة انك تماثلت
 للشفاء ، فانهم قادرون على أن يبدأوا معك من جديد ،
 واعتمد على ، اننى باذل كل جهدى من أجل انقاذك .

وأجهل أى تقرير قدمه هذا الصديق العزيز الى
 جلادى ، الذى حدث هو استجابتهم
 الى طلبه — أى الافراج عنى ، لعله شهد لهم بأننى رجل
 معتوه ، او لعلهم هم رأوا أن شخصى لم يعد يهمهم ،
 لأن هنتر كان قد احتل نشيكيوسلوقاكيا ، وأيقن أن
 سلطانه على النمسا أصبح مأمونا لا يخاف عليه .

وقدمت تعهدا بأن أغادر الوطن في بحر خمسة عشر
 يوما . وغرقت خلال هذه الفترة كلها في إجراءات السفر
 للخارج كما هى معهودة اليوم ، استخراج شهادات
 من ادارة القرعة ومن الشرطة ، الحصول على جواز
 سفر وتأشيرة للخروج وتأشيرة لدخول البلد الذى اقصدته
 وشهادة طبية ، فلم يبق لى وقت للتفكير فى الماضى .

ويخيل الى أن فى المخ قوى خفية منظمة ، تستبعد
 فوراً ، ومن تلقاء ذاتها ، كل ما يصيب الروح بضرر ،
 وبسبب هذا كنت اذا حاولت استعادة فترة السجن فى
 ذهنى ، خائنتى ذاكرتى ولم تسعبنى ، ثم لم استطع
 أن أسنعبد فى ذهنى ما حدث لى الا بعد أسابيع عديدة ،
 حين وجدتنى على ظهر السفينة .

أنت ولا ريب تدرك الآن لماذا عاملت أصدقائك معاملة

لاعب الشطرنج ٧٧

شاذه ، كنت أقضى الوقت في حجرة الدخين بين كسل وتراخ ، فاذا بى أرى هؤلاء السادة يجلسون الى رقعة الشطرنج ، فسمرنى في مكاتى شعور بالدهشة والخوف ، اذ كنت قد نسيت تمام النسيان أنه في الامكان لعب الشطرنج على رقعة ملموسة ويقطع مرثية ، نسيت أنه لعبة تتطلب لقاء شخصين مختلفين يتخذ كل منهما مقعده تجاه الآخر ، واعترف لك أنه لزمنى بعض الوقت لأتبين أن هؤلاء السادة مقبلون على عين اللعبة التى كنت العبها في محبسى ، حين كنت أعمد من شدة اليأس الى أن اللعب بنفسى ، ووضح لى أن الأرقام والحروف التى كانت عدتى في بدربى العصيب على لعبة الشطرنج ليست الا رموزا للقطع والمربعات . وكان لذهنى حين رأيت ان حركة القطع الملموسة على الرقعة تطابق حركات القطع الموهومة في خيالى دهشة تماثل دهشة الفلكى بعد ان يحدد على الورق وبالحساب وحده ، موقع نجم، ثم يرى فجأة جرم هذا النجم يتألا لعينه لأول مرة في صفحة السماء .

نبئت نظرتى على الرقعة لأشاهد عليها كيف ان ارقامى وحروفى نجرى ترجمتها الى حركات ، فرس وقلعة ، ولزمنى لكى أحكم على مركز كل من الخصمين ان انقل رموزى من عالم الخيال الى ما يجرى في عالم الواقع الذى تراه عينى ، وشيئا فشيئا غلبنى الشوق فنسيت كل ادبى وتدخلت في اللعب، ان الهفوة التى أوشك ان يقدم عليها صديقك ، كانت بمثابة طعنة في قلبى ، فأمسكت ذراعة بحركة غريزية وبلا تفكير كما تمسك بطفل يغالى بالميل بجسمه فوق سور شرفة ، ولم أدرك الا فبها بعد سماجة فعلتى .

سارعت الى تطمين السيد « ب » وقلت له اننا جمعيا

لاعب الشطرنج ٧٨

نشكر هذه الصدفة التي أتاحت لنا معرفته ، وأضفت متحدثنا عن نفسى أننى شديد اللفتة بعد سماع حكايته على مشاهدة لعبه فى الغد ..

بدأ عليه شىء من القلق وقال :

لا تنقرط فى الوهم ، أن الأمر بالنسبة الى لن يكون الا بمثابة تجربتى لنفسى ، نعم أريد أن أعرف ما اذا كنت قادرا على لعب الشطرنج كما يلعبه بقية الناس على رقعة ملموسة وقطع مرئية ، وضد خصم كائن أمامى ، اذ لا يزال يخامرنى شك فى قدرتى على أن أفعل هذا ، فهل هذه الأدوار المائة أو الألف التى لعبتها وحدى جرت طبقا للقواعد ولأصول ؟ أو أنها أوهاام خيال تشبه هذيان محموم يتخطفى فى قفزة صلات الواقع بين فعل وفعل .

ثم استطرذ :

— أنت يا صاحبى غير جاد فيما أرجو اذا ظننت اننى سأطاول بطلا عالميا أو أنتصر عليه .. الشىء الوحيد الذى يهمنى هو أن أعرف بدليل قاطع ما اذا كنت قد لعبت الشطرنج حقا فى حجرتى بالفندق ، أو اننى كنت حينئذ مجنوننا ، أو بكلمة واحدة : أريد أن أعرف هل جاوزت الآن أم لم أتجاوز بعد منطقة الخطر ، هذا هو غرضى الوحيد من اللعب غدا .

سمعنا آنئذ رنة « الجونج » تدعونا الى العشاء وكان حديثنا قد دام ساعتين تقريبا ، لاننى رويت هنا كلام السيد « ب » بشىء كثير من الاختصار ، فشكرته بحرارة وودعته ، ولكنى لم أكد ابتعد عنه حتى جرى خلفى ، وقال فى هياج بلغ من حدته أن كلامه انقلب الى قافأة : كلمة أخرى ، لا أحب أن يسوء أدبى مرة ثانية ، قل

لامب الشطرنج ٧٦

لأصدقائك أننى لن ألعب الا دورا سيكون نهاية حكاية
قديمة وخاتمة قاطعة لا بداية من جديد ، اذ لا أود ابدا
أن تفترسنى ثانية حمى اللعب أو جنون اللعب ، كلما
ذكرت ذلك سرت الرعدة فى بدنى ، بل ان الطبيب
حذرنى بكلام صريح من العودة للعب ، فان الرجل الذى
بصاب بلوثة قد ينعكس رغم شفائه ، وانه من الخير
لرجل غاله مثلى هذا الخمر أن لا يقترب مرة أخرى من
رقعة الشطرنج . انت تفهم حالى ، اننى لن ألعب الا
دورا وحيدا لأطمئن . هذا هو كل شئ .

وفي تمام الساعة الثالثة من الغد اجتمعت زميرنا في حجرة التدخين ، وانضم اليها ضابطان من طاقم السفينة ، هما من هواة الشطرنج بعد ان حصلنا على اذن خاص بمشاهدة اللعب .

لم يتركنا « زينتوفيك » ننتظره هذه المرة ، وبدأت مباراة هيهات أن تنسى ، نازل فيها مواطني المجهول بطلا تحف رأسه هالة المجد ، واني لشديد الأسف أن هذه المباراة جرت أمام أناس لا يبلغون مقامهما ، وانها لم تسجل فضع خبرها كما ضاعت الألحان التي كانت نجرى بها أصابع بيتهوفن على البيانو من وحى الساعة ... قد حاولنا بطبيعة الحال في اليوم التالي ان نعتمد على الذاكرة وحدها في تسجيل سير المباراة ، ولكننا لم نفلح ، لأن اهتمامنا كان الى اللاعبين لا الى المباراة بحيث شق علينا تسجيلها فيما بعد .

ان التناقض العقلي بين اللاعبين زاد تمثله في مسلك كل منهما اثناء المباراة ، زينتوفيك جامد متصلب يلعب وهو أسير خبره ، لا يهتز ولا يرفع بصره عن الرقعة أما التفكير فانه يقتضى منه بذل جهد جسماني يشد كل اعصابه ، على حين أن السيد « ب » بقى طليقا ناجيا عن الأسر ، انه يمثل أرقى درجات الهواية ولا يرى في اللعب الا وسيلة لتسلية لذيذة ، انه يشرح لنا بغير مبالاة بين كل حركة وحركة معنى ما يفعل ، ويشعل سيجارة بيد مرتعشة ولا يلقي نظرة الى الرقعة الا قبل ان يلعب حركته ببرهة وجيزة . هذا هو شأن لاعب يحدس من قبل خطة خصمه .

لاعب الشطرنج ٨٢

سار اللعب حينئذ أول الأمر ثم وصل بعد الحركة السابعة أو الثامنة الى وضع ينم عن أن لكل لاعب خطة ثابتة مدبرة ، وبدأ زينتوفيك يطيل تفكيره وفهمنا من ذلك أن المباراة قد بدأت حدها من الجد . وكان ينبغي لى ان أردت الصدق أن اقرر أن وقع المباراة علينا نحن المشاهدين المبدئين لم يكن الا خيبة الأمل ، فكلما توالى تجمع القطع في أشكال زخرفة هندسية زاد عجزنا عن فهم معناها الخبيء ، لا نصل الى ادراك مرمى كل لاعب ، ولا تبين الظفر الى أى جانب يميل ، كل ما نراه هو قيام اللاعبين بسوق القطع على قائدين للجند لاحداث ثغرة في حصون العدو ، نرى سير المعركة ولانفهم هدفها المتشود ، فان اللاعب الخبير مثلها يدير خطته من قبل بمقدار عدة حركات سابقة .

واقترن جهلنا قليلا قليلا بتعب أحسننا به وبخاصة في فترات التريث الطويلة التي يدوم فيها تفكير « زينتوفيك » ، وكان واضحا أن اللاعب النمساوى يضيق ذرعا بهذا البطء ، وأخذت الحظ بقلق أنه بدأ يتلمل في جلسته ، يشعل في هياج سيجارة اتر أخرى، أو يخط ملاحظة بيدعجلى ويطلب زجاجات من المياه المعدنية يفرغها على الفور في جوفه ، وكان واضحا أنه أسرع من « زينتوفيك » مائة مرة في تدبر حركته اذا وصل « زينتوفيك » بعد تفكير طويل الى قرار وقام بتحريك قطعة بيده الثقيلة ، رأينا صاحبنا يبتسم شأن من توقع هذه الحركة منذ زمن طويل ، ورد عليه من فوره بحركة منه ، ان ذهنه ولا ريب يعمل في سرعة سديدة بحيث يدرك كل احتمالات الانتصار الباقية لخصمه وكلما زاد بطء « زينتوفيك » زاد قلق غريمه ، ونقلت شفناه دلالة على الغضب بل العداء .

لاعب الشطرنج ٨٢

ولكن « زينتوفيك » لم يبالي قط بمثل هذه المنغصات الهيئية ، بل كلما قل عدد القطع على الرقعة زاد تفكيره وطال ، وان بقي لا يتحول عن عبوسه وصمته ، وحين بلغت المباراة الحركة الثانية والأربعين كانت قد دامت ساعتين وثلاثة أرباع الساعة ، وكففتنا نحن عن متابعتها الا بنظرة سارحة مضغضعة ، كان أحد الضابطين قد غادرنا وبقي زميله يقرأ في كتاب ، ولا يلقي نظرة الى الرقعة الا حين يقوم أحد اللاعبين بتحريك قطعة وفجأة حدث شيء مفاجيء غير متوقع ، كان الدور في اللعب على « زينتوفيك » ، ووضع سببته على قطعة الفرس ليحركها ، فاذا بالسيد « ب » حين رأى هذه الحركة يتضام جسده كالهرة على وشك أن تثب ، وبدأ يرتعش ، وقدم قطعة الوزير بحركة نابثة تم صرخ بلهجة الانتصار :

— انتهينا ، هذا هو القول الفصل .

ثم مال للوراء وعقد ذراعيه على صدره ورمى « زينتوفيك » بنظرة تتحداه وتلمع بلهيب دفين .
انكفأنا على الرقعة لنرى دليل الانتصار الذي أعلنه علينا ، فلم نر أول الأمر شبيها يهدد « زينتوفيك » بالخطر ، وقلنا لاشك أن صرخة صاحبنا ستجد مصداقها في حركة قادمة ، يشق علينا نحن الهواة المبتدئين قصار النظر ان نراها من قبل ، وبقي « زينتوفيك » وحده جامدا غير آبه بهذه الصرخة كأنه لم يسمعها ، ثم لم يحدث شيء ، الساعة الموضوعية على المنضدة لتقبس الفترة المحددة بين كل حركة وأخرى تسمعنا دق رقاصها وسط صمت مطبق مضت ثلاث دقائق ، ثم سبع ، ثم ثمان ، هذا و « زينتوفيك » باق على ثباته لا ينحرك

لاعب الشطرنج ٨٤

ولا يهتز ، وعلى ذلك خيل الى ان سعة منخزيه الثقيلين قد زادت من اثر جهد يبذله .

شق على السيد « ب » كما شق علينا احتمال هذا الانتظار فنهض قفزا من مقعده وأخذ يزرع حجرة التدخين جيئة وذهايا ، بخطى بطيئة اول الأمر ، ثم زادت سرعتها درجة بعد درجة ، وراقبته الزمرة كلها بشيء من الدهشة ، أما أنا فقد تملكنى القلق فقد تبينت أنه رغم حنقه ينقل خطاه في حيز محدود ، بحيث يظن من يتأمله أن في وسط الحجرة حاجزا غير مرئي بصدده ويجبره أن يعود القهقري ، وأدركت وأنا ارتعد أنه يكرر في حجرة التدخين مثليه المحدود داخل مجال حجرته في الفتق ، لابد أنه كان هكذا يمشي — الشهور الطوال كالوحش في قفصه ، يده متوترتان ، وكتفاه غائران ونظره الثابتة المحومة تشع باحمرار وميض الجنون .

غير أنه ظل مع ذلك في حجرة التدخين مالكا لزام نفسه ، يلتفت بين الحين والحين وهو نافذ الصبر الى المنضدة ليرى ما اذا كان « زينتوفيك » قد لعب حركته .

تسع دقائق ، عشر دقائق مرت هكذا ، ثم حدث شيء لم يكن أحد منا يتوقعه رفع « زينتوفيك » يده الثقيلة ببطء فعلمت به انظارنا ، لنرى ماذا عساه ان يفعل ، ولكن « زينتوفيك » لم يلعب ، بل يعثر قطع الشطرنج بظهر يده ، ولم ندرك على الفور أنه يعنى بذلك تخليه عن المباراة وانه يستسلم قبل ان نرى هزيمته حين تقع .

ان حدث امامنا ما لا يصدقه العقل :
هذا بطل عالمي فاز في عديد المباريات يلقي سلاحه لرجل مجهول ، لرجل لم يمس رقعة شطرنج منذ خمس

لاعب الشطرنج ٨٥

وعشرين سنة وهذا صاحب لنا مجهول يقتصر على أمر
لاعب في العالم ، أمام حشد من الناس .

نهضنا من مقاعدنا ونحن من الهياج في غفلة مما
نفعل ، كان كل منا يحس أنه ينبغي له أن يفعل شيئاً
أو يقول شيئاً ، لينفس عن انبهاره وجذله أما الوحيد
الذي ظل جالساً فهو زينتوفيك ولبث هكذا فترة طويلة
رفع رأسه بعدها وصوب الى صاحبنا نظرة قاسية
ثم سأله :

— هل لك في دور آخر ؟

اجابه السيد « ب » بحماس انقبض له قلبى .

— بكل تأكيد .

ثم جلس من قبل أن الحقه وأنبهه الى سابق وعده
بأن لا يلعب الادورا واحدا ..

وبدا في سرعة محمومة يصف القطع ، وبلغ من ندة
رعشة أصابعه ان فلتت منه بيدقان وتدحرجا على الأرض ،
وتحول الضيق الذى خلفه من فرط هياجه الى لوعة
بالغة ، من الواضح أن هذا الرجل الهادىء المسالم قد
غاله العناد والهوس ، وعادت هزته العصبية تلوى ركن
فمه واخذ جسده كله يرتعش كأنما سرت فيه حى
مفاجئة .

فمست اليه برفق :

— حلمك ! لا تلعب ، يكفيك اليوم دور واحد فانت

متعب .

اندفع ببهجة ووجهة ينطق بشراسة مذمومة :

— هاها ! متعب ! اننى كنت أستطيع أن لعب

سبعة عشر دورا لولا هذا البطء ، لا بكرينى منه الا اننى
أبقى معه متقد الذهن يقظا بلا طائل .

لاعب الشطرنج ٨٦

ثم التفت الى زينتوفيك وقال له بلهجة عنيفة ، بل تكاد تكون غير مهذبة :
— أنت الذى تبتدىء .

القى عليه زينوفيك نظرة هادئة متأنية ، ولكنها تشبه فى قسوتها لكمة من قبضة يد .
أصبح كل خصم يواجه خصمه ينوتر خطر وكراهية طاغية ، لم يعد الاثنان زميلين فى لعبة يحاول كل منهما ان يلتمس منها شيئا من اثبات تفوقه ، أصبح حالهما حال عدوين أقسم كل منهما ان يحطم الآخر .
صبر زينوفيك طويلا قبل ان يلعب حركته الاولى ، وخيل الى انه يفعل ذلك عن عمد ، لاجرم انه أدرك ان البطء يثير خصمه ويغيظه فاستقله كسلاح شأن الخبير المدرب .

وبعد اربع دقائق طال مرها علينا افتتح زينوفيك اللعب بحركة بسيطة مألوفة بأن قدم بيدق الملك خطوتين الى الامام . فكان رد السيد « ب » ان قلده وقعل مثلما فعل .

توقف زينوفيك من جديد ، لا يتخلى عن البطء الذى يغيظ خصمه وكانت قلوبنا تخفق ونحن ننتظر ، شأن من يرى البرق واذا انتظر جلجلة من بعده وجدها تغيب ثم تغيب هذا ، وزينتوفيك ثابت لا بهنز ، يفكر فى هدوء وبطء ، وبيئت بصورة أوضح انه يفعل ذلك عن عمد وخبث ، ومع ذلك حمدت هذا البطء لانه اتاح لى أن انأمل السيد « ب » مليا . . كان قد شرب ثلاث زجاجات من المياه المعدنية فنذكرت عطشة الذى كان يلهب جوفه سجنه ، ظهرت لى على هذا الرجل المسكين علامات الهياج المريض ، جبينه مبلل بالعرق ، وأثر الجرح فى يده زاد نطقا واحمرارا وبقي على ذلك زمنا وهو مالك

لاعب الشطرنج ٨٧

لزام نفسه ، ولكنه بعد الحركة الرابعة — حين رأى زينتوفيك يطيل تفكيره انفجر وصرخ فيه :
— العب ! ماذا بك ؟

رفع اليه زينتوفيك عيناً بارده وقال :
— لقد اتفقتنا — أن لم أخطيء — على أن فترة التريث بين كل حركة وأخرى مسموح لها أن تمتد الى عشر دقائق وأنا من مبدئى أن لا لعب بسرعة أكثر من سرعتى هذه .

عض السيد « ب » شفته وبدأت يمأقه من تحت المنضدة تملو وتنخفض بسرعة لا ينقطع تزايدها . انه سيفقد وعيه ، وهذا ما توقعته .

وحينما وصلنا للحركة الثانية وبدأت فترة التريث وقع حادث جديد ، كان السيد « ب » قد صبر من قبل لفترات التريث بضيق متزايد ، فإذا به هذه المرة يفقد سيطرته على نفسه وأخذ يميل الى الوراء والى الامام وينقر بسبابته على المنضدة . .

رفع اليه زينتوفيك رأسه الثقيل وقال :
— أرجوك ، من فضلك لا تنقر على المنضدة بسبابتك فان هذا يزعجنى ، اننى لا أستطيع اللعب اذا سمعت ضجة .

ضحك السيد (ب) ضحكة خاطفة وقال :
— ها ، ها ، هذا ما أتبينه .
احمر وجه زينتوفيك وأجاب بصوت قاس شرس :
— ماذا تعنى بقولك هذا ؟
فعاد السيد (ب) يضحك من جديد ضحكة جافة شريرة وقال :
— لا أعنى شيئاً ، كل ما فى الأمر أن أعصابك هانجة .

لاهب الشطرنج ٨٨

أحتى زينتوفيك رأسه وصمت ، وصبر سبع دقائق قبل أن يلعب حركته التالية وسار الدور بعد ذلك على البطء المميت ، وزاد جمود زينتوفيك حتى بلغ درجة التحجر ، وتوالى ازدياد غرابة مسلك غريمة ، وبدأ عليه كأنما نسي اللعب وشغل نفسه بشيء آخر كان قد كف عن ذرع الحجرة ذهابا وإيابا واستقر على مقعده لا يتحرك ، ينظر الى القضاء أمامه نظرة شاخصة شاحبة ، وهو يتمم بكلمات غير مفهومة . . هل هو مستغرق في التفكير في وضع خطط للعبة لا نهاية لها ؟ أم هل بدأ يلعب دورا جديدا في ذهنه كما ظننت ؟

وأصبح لا مفر لنا من تشبيهه اذا جاء دوره في اللعب ، فلا يقتضيه ندبر حركته الا دقيقة واحدة ، ومع ذلك زاد يقينى باننا نسينا جميعا — نسينا نحن وزينتوفيك أيضا ، وأنه أصبح فريسة لنوبة من الجنون البارد نوقع لها ان تنفجر بين لحظة وأخرى .

وقد حدث هذا فعلا عند الحركة الرابعة عشرة ، اذ لم يكذ زينتوفيك بفرغ من حركه حتى قدم السيد (ب) قطعة الفيل صفوف ثلاثة دون أن ينظر الى الرقعة وصرخ صرخة افزعنا :

— كئس الملك . مات الملك .

انكفأنا على الرقعة نحاول ان نفهم كيف انتصر ، ولكن حدث بعد لحظة حادث لم يكن احدنا يتوقعه . رفع زينتوفيك رأسه شيئا فشيئا في بطء شديد وجمال ببصره علينا وكان لم يسبق له ان فعل ذلك ، وراينا على شففيه ابنسامة ملؤها الهزء والرضى كأنها بشعر يسرور لاحد له ، ولما فرغ من تذوق لذة استعلانه الظافر الذى لا نفهم سببه قال للزمره كلها بأدب مصطنع :

لاعب الشطرنج ٨٩

— آسف أيها السادة . اننى لا أرى الملك قدمات .
 فهل لأحد منكم أن ينفصل ويشرح لى كيف مات ؟
 تأملنا الرقعة ثم تحولت نظراتنا القلقة الى السيد
 (ب) — ذلك لأن ملك زينتوفيك كان فى حمى بيدق —
 حماية لا يشق على طفل ان يراها ، اذن لم يميت الملك .
 فهل اخطأ صاحبنا فى وضع احدى قطعة ؟
 اعاده الصمت المطبق من حوله الى وعيه ، ففحص
 بدوره الرقعة واخذ يفانى بعنف :

— ولكن الملك ينبغى ان يكون فى المربع ف ٧ ، انه
 لبس فى مكانه ، ليس فى مكانه قطعاً ، انه لبس فى مكانه ،
 ليس فى مكانه قطعاً ، انت اخطأت اللعب ، وكل ما على
 الرقعة خطأ ، فهذا البيدق ينبغى ان يكون فى مربع د ٥
 لا ج ٤ ، ليس هذا هو الدور الذى تلعبه .. انه .

ثم سكت بغتة ، كنت امسكت بذراعة بل قرصته
 بشدة قرصة أحس وقعها رغم غيبوبته وضلاله ،
 فالتفت ونظر الى بعينى رجل يمشى فى نومه :
 — ماذا جرى ؟ ماذا تريد ؟

فلم أفعل الا ان همست له : تذكر ، ولست باصبعى
 أثر الجروح فى يده ، فتابع حركتى — بنظرة خامة
 شاحصة ، ونظر الى أثر الجرح وقد نطق احمراره
 رعشة تهز جسده وتمتم بشفتين شاحبتين .

— بحق الله ، قل لى ، هل فعلت شيئاً مريباً ..
 هل انا من جديد ..

فقلت له بهدوء : كلا . ولكن كف فوراً عن اللعب .
 قد آن اوان انصرفك عنه ، وأذكر تحذير الطبيب .
 فنهض من فورهِ وانحنى امام زينتوفيك بأدبه المعهود
 من قبل وقال :

لاعب الشطرنج ١٠

— أرجو الصفح عن خطئى ، كان قولى «كش الملك» حماقة منى ، هذا واضح ، انك انت الذى كسبت الدور وانتصرت .

نم التفت الينا وقال :

— وكذلك التمس منكم أيضا الصفح عنى ، الم أحذركم من الغلو فى الثقة بمقدرتى — معذرة لوقوع هذا الحادث السخيف — انها آخر مرة فى حياتى أحاول أن لعب فيها الشطرنج .

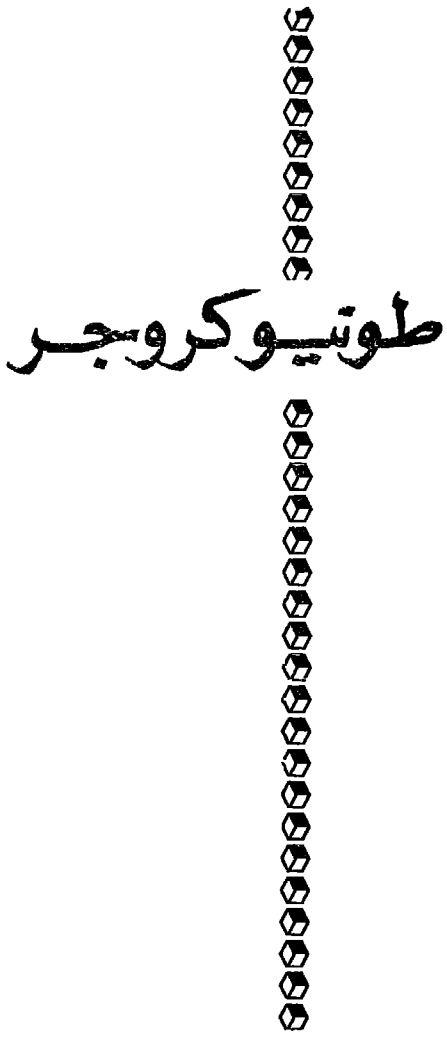
وانحنى أمامنا ثانية وانصرف كما قدم علينا من قبل بحركة يلفها النجم والغموض ، وكنت أنا وحدى من بينهم مدركا لماذا لن يلمس هذا الرجل من بعد رقعة الشطرنج ، أما بقية الزمرة فقد مكثت يخامرها شعور بانها قد نجت من خطر مجهول .

وزمجر ملك كنور قائلا وقد خاب امله :

— ياله من غر أحقق .

وكان زينوفيك آخر الجميع فى مقادرة مقاعدنا ، ثم من قبل أن ينصرف القى نظرة أخرى الى الدور الذى بدأ ولم يرم وقال بلهجة السمع الكريم المفضل :

— خسارة . لم يكن اللعب رديئا حتى ينتهى هكذا ، ان لصاحبكم رغم أنه من الهواة — موهبة مدهشة . .



مقدمة

توماس مان على سمو مكانه — جائزة نوبل — يستحق منا قدرا أكبر من الانصاف ، مبلغ علمي أن أعماله الكبرى لم تترجم بعد ، وان كانت فلا تعقيب عليها أو ذكر لها في دراسات نقدية مسنيفة ، (أسرة بوندبروك — ١٩٢٤ ، الجبل السحري — ١٩٢٧ — يوسف (١٩٣٤ — ١٩٤٥) الدكتور فاوست ١٩٤٩) له الى جانب هذه الروايات الطويلة روايات قصيرة ذاعت شهرتها مثل طونيو كروجر (١٩٠٣) تريستان (١٩٠٢) الموت في البنديقية (١٩١١) ، وها أنذا قد أخذت على عاتقي أن أنرجم لك طونيو كروجر عن الانجليزية والفرنسية معا ، وأود أن أنبهك بادئ ذي بدء ، أنك لن تجد في هذه الأقصوصة هذا الذي اصطلحنا على تسميته بالحدوتة ، وقد يصفها بعض النقاد المحدثين عندنا بأنها أقرب الى المقال منها الى القصة ، كما حكموا على أعمال أخرى مماثلة في أدبنا المعاصر ، ونفى صفة القصة عن طونيو كروجر لم يقل به ولا ناقد واحد في الغرب . هي اعترافات تدور كلها حول صراعات عديدة محتدمة في ضمير البطل ، والحب ليس فيه عناق ولا حتى لقاء بل نظر من بعيد ، والحوار يكاد يكون معدوما ، الأفكار اجترار دائم ، مما أوقعها في شرك التكرار ، عمادها التحليل والموصف ، وسيروك أنك لن تجد فيها اسما لحي أو جماد الا تبعته صفة ، وصفتان ، وربما ثلاث ، وفي بعض الأحوال أربع وخمس ، طبعا بقصد التحديد وحمك على الشعور بالالتحام

طونيو كروجر ١٤

بالوجود بعد اكتشافه ، كأن الوصف وصف أعمى يلمس الأشياء بأصابعه وهو يقلبها على كل وجه وجانب حتى يستوعبها أدراكه ، تتابع الصفات هو تتابع اللمسات ، وقد يفتقر للاديب أنفته من أن يساير هوى قرائه الى السهولة ولكن يحسن به الا يتسلى بامتحان صبرهم امتحانا عسيرا ، ولا يكره القارئ أن يلتمس المؤلف ما شاء له من النسلية ولكن ليس على حسابه ، اذا تحدثت في قصة عن فقراء فلا بأس أن تصف مائنتهم بأنها من خشب أبيض ، واذا دفع نوماس مان ذراعك أضفت — وسطحها مقشور ، واذا دفعت مرة أخرى كتبت — ورجلها مكسورة ... أما حين لا يزيد دور رجل غريب يقابلك في القصة عرضا ولرة واحدة لأنكره ، وليس له أقل تأثير عليك ولا على مسار القصة ، وانما شاء القدر أن يجلس بجانبك على مائدة الطعام فما الداعي لأن تصفه لنا بأنه بدين ، مصاب بالربو ، يسد متخرا له بسبابنه لينفخ أنفسه بقوة من منخره الآخر ليسلكه من زكام ، ثم تصف لنا ملبسه وصوته ونطقه .. اذا لاحظت هذه المبالغة في اشتراط الصفة ونابعها تبدد من فورك لذة مشاركتك للمؤلف في اكتشاف الوجود — ولا مبلك الى الالتحام ، ولك بعد ذلك أن نبسم لهذا الهوس اللذيق .

عجيب أمرى ، أبدا لا بمدح الأقصوصة ، بل بفضح نزواتها ، ولكنى أريد أن أبريء ذمى منك ثم أخلى من بعد بينك وبينها للتمتع بالتغلغل الى أعماق الأعماق حيث تدور صراعات عجيبة في نفس انسان أصابنه لونة الفن . ان عماد هذه الأقصوصة هو الفن والفنان .
هل يتحدث توماس مان عن نفسه في هذه الأقصوصة على لسان بطلها ، فمواد الاثنين في مدينة تقع في شمال

طونيو كروجرجر ٦٥

ألمانيا على بحر البلطيق (اسمها لوبيك — وان لم يذكرها صراحة في الأقصوصة) وأب الاثنتين تاجر حبوب ، له منصب رسمى فى بلدته ، فهو ينتمى الى الطبقة البورجوازية ، انه رجل جاد بارد الأعصاب متفكر يحكمه المنطق لا الخيال ، وأم الاثنتين امرأة جميلة ، مولدها فى بلاد قصىة فى الجنوب يسرقها الخيال من المنطق ، وتحب الموسيقى واللذة الحسبة ، متقدة العواطف ، تكره الغم ، اذا حط عليها نشته نش الذباب . فالأب والأم من طرازين بينهما تناقض الأضداد ، جنسا وخلقة وطبعاً .

فهل هذه الأقصوصة سيرة ذاتية ؟ ينبغى الا يشغلنا هذا السؤال كثيرا ، فليس هذا هو المهم فيها ، المهم فيها هو موضوعها ، ينبغى أن يستقل للحكم عليه لقيمتها الذاتية ، وأنت تعلم أن لا فن ينقل عن الواقع بأمانة ، لابد من الخيانة ، الأمانة الوحيدة المقبولة هى أمانة الفنان للصدق الفنى ، وهو شىء مخلف أشد الاختلاف عن الصدق الأخلاقى .

وهذا التناقض بين الأب والأم فى القصة كان خليقا بأن يؤذن بسلالة تشذ عن الأصلين وبقية السلالات أما رقتيا أو انحطاطا ، هذا هو الصراع . عاناه الابن طونيو كروجرجر حين أنس فى نفسه ميلا الى الفن ، فهو يتمزق بين أعراف البورجوازية — أرثا عن أبيه — وبين شطحات البوهيمية واللذة الحسية ، أرثا عن أمه ، هل يكون الفنان فى نظره مساويا لقبية الناس ، أم أن قدره المحتوم ، أو قل لعنته المحتومة — تجعله شاذا عنهم ، هم لهم ضمير مستريح ، واندماح فى ركب البشر ، أما هو فتعذبه دواما عقدة الذنب ، ولا يجد له مكانا فى هذا الوجود يستريح له . هل الفنان جنس من

طونيو كروجر ٩٦

المخلوقات لا تسرى عليه الأحكام التي يخضع لها الناس . وقد غالى طونيو في تصويره لشذوذ الفنان حتى كاد يشترط له هذا الشذوذ في طبائعه ، بل في خلقته وصحته ، كما غالى في تصوير التناقض بين أبيه وأمه ، ففي تقديره أن شمال جبال الألب في ألمانيا محرومة من بلد مثل فلورنسا في جنوبها ، تدخلها فتحسب أنك تدخل متحفاً ، في فلورنسا ارت حضارة اغريقية رومانية ، في شمال الألب في ألمانيا بصمات غزو بربرى ، فالناس في الشمال حيث ولد طونيو وله ملامح وطبائع أمه بنت الجنوب — لهم نظرة عملية تتبعث من عيون زرق تحت شعر أشقر ، يقول طونيو أن الفنان يظل غريباً بينهم ، انه يحلم ببلاد الجنوب ، وان كان أعجابه كله لأهل الشمال ، فاذا وصف ايطاليا قال ان سهولة الحياة فيها تبلغ حد الكسل ، وحلاوة العيش فيها ممجوجة لانها لزجة كالعسل .

في طونيو كروجر حشد آراء كثيرة عن الفن والفنان ، ستجد امندادها في اقصوصة (الموت في البندقية) فالموضوع يكاد يكون واحداً في الاثنين : صراعات الفنان ، انتصارانه وهزائمه ، لا في الحياة بل في باطن روحه ، آراء مهما كانت قيمتها تهم كل المشتغلين بالفن ، ولعلها بالنسبة لغيرهم فتح لباب عالم جديد عجيب ، فماذا عليهم لو ولجوه ، وقد قرأتها بمنعة لا نخلو من ابتسام وحسرة ، أحسست بأن هذه الآراء قد عفى عليها الزمن ، واستعبرت بأسى اذ لا شيء يدوم ولكن الألبوم الذى نحمله في أيدينا بحرص شديد لا نستطيع أن نمزق صفحاته الأولى ، لا بد أن نتأملها ونحن نطويها ، فما أبعد الصورة التي رسمها توماس مان في شبابه للفنان الممزق بين البورجوازية والبهيمية ، بين انتمائه

طونيو كروجر ١٧

للمجتمع وشدوذه عنه ، منغلق على نفسه ، المفرط في
تأنقه ، الغافل عن أنه تفسخ هو وأدبه .
ما أبعد صورة هذا الفنان عن صورته في الوقت
الحاضر ، لم يعد يعيش في توقعته ، أو على قمة
الجبل ، بل همومه هي هموم جماعية على مسرحه
القومي ، بل والعالمي .. انه ليس موهبة فحسب بل
موهبة ودرس والتزام .

الفصل الأول

كانت شمس الشتاء المختبئة وراء كسف من السحاب
تسدل على المدينة المحشورة داخل أسوارها الا
علالة باهنة من ضوء ضئيل شاحب ، الشوارع — تحف
بها على الجنين منازل ذات قمم مثلثة الاضلاع — بللتها
الأمطار ، والان تصفر فيها الرياح وبين الحين والحين
يساقط نوع من البرد الهش وسط ، لا هو ثلج في تجمد
ولا هو ثلج في ندف .

انتهت آخر حصة في المدرسة ، واخذ سيل من
الصبيان — ردت اليهم حريتهم — يتدفقون في قرارهم
يمنة وسرة للتلاميذ الكبار حمل لوزم كتبهم بخيلاء ، فهم
يرفعونها ويسندونها الى الكتف اليسرى ، ويدفعون
الذراع اليمنى في حركة الجذاف لمغالبة الرياح وشق
طربتهم الى وجبة الغداء . أما الصغار فسيرهم كخبث
الخيول ، يجعل الثلج المذاب يتطاير تحت أقدامهم من كل
جانب ، ويجعل أدوات الهندسة تصلك داخل حقائبهم
المصنوعة من جلد الفئمة ، ولكن الكبار والصغار على
السواء يرفعون بين الحين والآخر الكاسكيت عن الرأس
بخشوع وأدب ، تحفة لأساتذة ، فيهم الملتحي ، وفيهم
اللابس قبة عالية ، وهم يبتعدون بخطى وقورة .

— ما الذى شغلك عنى يا هانز ؟
هكذا هتف طونيو كروجر بعد أن طال وقوفه منتظرا

طونيو كروجر ٦٦

فوق الرصيف ، وتقدم مبتسما الى صديقه وهو يخرج من الباب في صحبة رفاق آخرين ويهم بالانصراف معهم . نظر اليه صديقه وأجابته :

— لماذا سؤالك ، آه ، تذكرت الان ، تعنى اتفقتنا السابق على القيام معا بجولة أخرى .

لزم طونيو الصمت وغامت عيناه ، هل نسي هانز انن فلا يذكر الا الان ، أنهما على موعد للقيام معا بهذه الجولة ظهر اليوم ، في حين أنه ظل يذكرها باغتراب منذ ان اتفقتنا عليها ، وقال هانز لرفاقه مودعا لهم :

— سأصحب كروجر في جولة مرة أخرى .

وسار الأثنان الى اليسار ، بينما اتجه الآخرون في تسكع الى اليمين ، أمام هانز وطونيو متسع من الوقت للتنزه بعد الانصراف من المدرسة ، فكلاهما من أسرة لا تتناول طعام الغداء الا في الساعة الرابعة بعد الظهر وهما من أبوين من كبار التجار ويشغلان مناصب رسمية ، ولهما نفوذ كبير ومقام بين الناس ، فأسرة هانز تملك منذ أجيال مصانع فسيحة لبناء السفن قائمة على ضفة النهر ، حيث تعمل المناشير الآلية القوية ، وهي تلهث وتبصق في شق جذوع الأشجار .

أما طونيو فهو ابن القنصل كروجر (القنصل عضو مجلس محلي منتخب) الذي ترى الناس كل يوم اسم متجره مكتوبا بأحرف سود غلاظ على أكياس الحبوب فوق عربات النقل ، ودار أسرته المتوارثة عن الجدود أجمل دور المدينة .

لم ينقطع الصديقان في سيرهما عن رفع غطاء الرأس تحية لأناس من معارفهما ، بل ان من بين هؤلاء من كان هو البادئ بتحية هذين الصبيين ، لم يتجاوز عمر احدهما الرابعة عشرة ، كلاهما يحمل مخللة الكتب

طونيو كروجر ١٠٠

على ظهره ويرتدى ملابس حسنة ينعم فيها بالدفء .
لهانز سترة كسترة التجارة ، زرقاء قصيرة ، تنحدر
ياقتها العريضة فتغطي كتفيه وظهره ، ولطونيو معطف
رمادى له حزام ، على رأس هانز قلنسوة تحسبها لبحار
دانمركى ، تتدلى من حافتها شرائط قصار ، تنفلت من
بينها خصلة من شعر اشقر فى لون أعواد الكتان عند
الحصاد ، انه صبى ما أبهى ملاحظة وجهة ورشاقة
نامته ، كتفاه عريضتان وعيناه فى زرقاة نصل من الفولاذ
لهما نظرة رحيبة طليقة . أما طونيو فيلبس قلنسوة
مستديرة من الفرو ، وجهه أسمر وملامحه نقيحة شأن
اهل الجنوب ، عيناه داكنتان كأنما تغشاها ظلال
رقيقة ، جفناه جد ثقيلين ، نظرتة توحى بالأحلام وبعض
التردد ، تحسب ان قلما مرهفا هو الذى رسم فمه
ونقنه ، خطوته متراخية ولا تثبت على وثيرة واحدة ،
أما هانز فبمبشى نشيطا على قدمين عفيتين يسترهما من
داخل الحذاء جورب أسود فكانما يوقع بخطوه الرشيق
لحنا منغما .

ولزم طونيو الصمت ، انه يتألم ، يقطب حاجبيه
المقوسين قليلا ويكور شفثيه ليتمكن من الصفر وهو
ينظر من جنب الى بعيد ، مائلا برأسه ، حتى أصبح
من طبيعه المميز له التزام هذا الوضع وهذا التعبير الذى
تنطق به ملامحه .

ودس هانز فجأة ذراعه تحت ذراع طونيو ، ونظر
اليه خلسة ، لأنه يفهم حق الفهم شجون صديقه ، فما
لبث طونيو بعد أن سارا معا بضع خطوات دون أن
يتكلم أن شعر بحنان دافق يغمره ، وقال هانز وهو
يخفض بصره الى الرصيف :

— صدقتى ، اننى لم انس ، ولكنى ظننت من الاحوط

طونيو كروجر ١٠١

الا نقوم بهذه النزهة لأن الجو رطب وسيء ، ولكنى لا أبالي بهذا كله ، وكان جميلا منك أنك مع ذلك تسد انظرتنى ، فقد ظننت أنك انطلقت الى الدار وكان ذلك مما غمنى .

اهتز كيان طونيو كله بالطرب والغبطة وهو يسمع هذا الكلام ، وأجاب بصوت يخلبه التأثير :

— فلنذهب اذن الى اسوار المدينة ثم أرافتك الى دارك ، لا تعارضنى ، فلا يضيرنى أن أعود وحدى الى دارى ، وفى المرة القادمة تصحبنى أنت اليها . ثم تكون أنت الذى يعود وحده لداره .

انه لا يؤمن كل الايمان بعذر صديقه ، وأحس بوضوح أن هانز أقل منه شغفا بهذه النزهة التى يخلو فيها أحدهما للآخر فلا دخيل بينهما ، ولكنه تبين أن صديقه آسف حقا على نسيانه وعده ، وأنه مهموم بأن ينال الصفح وأن ابغد شئء عن خاطره أن يؤخر لحظة هذا الصفح .

ذلك أن طونيو كان يميل بقلبه الى هانز ، ولطالما أضناه على يديه العذاب ، فالذى هو بين الاثنين أشد ضعفا يكون هو الأشد هياما والأشد أذنا عذابا ، ان ادراكه لهذه الحقيقة هو درس له ، ان فؤاد طونيو وهو ما يزال غضا فى مقتبل ربيعته قد لقتته الحياة عبرة هذا الدرس الواضح القاسى ، من طبعه — هكذا خلقه الله — أن يتنبه كل الانتباه ويدرك أتم ادراك مثل هذه العبر ، وأن يسجلها فى دخيلة نفسه واجدا فى ذلك شيئا من المتعة ، ولكن دون أن يجعل مسلكه يتأثر بها أو يستغلها لصالحه ونفعه ، وكان يجد كذلك ان خبرته بهذه العبر تفوق فى الخطر والمتعة كل علم يتجرعه فى المدرسة غصبا ، وكان يصرف معظم ساعات الدروس

طونيو كروجر ١٠٢

تحت قبو « فصل » مبنى على الطراز القوطى ، يتأمل مبلغ تأثر نفسه بهذه العبر التى ينتبه اليها ويلج فى تقصى كل ما توحى به من معان ، وكان انشغاله بهذه الأمور يمنحه رضا يماثل ذلك الرضا الذى يشعر به وهو يتجول فى حجرة نومه يمارس العزف على الكمان بالحن يرقتها ما استطاع لكى يخالطها بخير نافورة فى حديقة داره ومياهاها تثب وهى تتراقص على فروع شجرة الجوز العتيقة .

النافورة المتوثبة شجرة الجوز العتيقة ، الكمان ، رؤية البحر من بعيد ، بحر البلطيق يترقب أمامه حين يقضى أجازته أن تداعبه أحلام الصيف — هذه هى الأشياء التى يهيم بها ويجب أن يعيش فى صحبتها وتتلون بها خواجه ، أشياء تقع أسماؤها أجمل وقع فى الشعر ويتردد صداها كالنقر على الطبل فى القصائد التى يسطرها أحيانا ، الذنب ذنبه هو اذا كان لم يصن سر احتفاظه بكراسة يسجل فيها شعره فافتضح أمره عند أقرانه وكذلك عند أساتذته ، ولكن طونيو بن القنصل كروجر لا يساوى نفسه بالحمقى والسوقة فيعلق لافضاح سره ، انه يحتقر رأى أقرانه ورأى أساتذته على السواء .

أساتذته رجال أجلاف يتقزز منهم وتكشف بصيرته الشفافة النفاذة ما تنطوى عليه نفوسهم من علل ، بيد انه آمن هو نفسه أن قرض الشعر ادعاء لا يليق به ، ورضخ نوعا ما لرأى الذين يرون أن صرف الوقت فى نظم الشعر نشاز وانحراف ، ولكن رضوخه هذا لم يبلغ من القوة الى الحد الذى يمنعه من المضى فى هوايته .

وإذا كان طونيو يضيع وقته هدرا فى البيت فانه كذلك فى المدرسة لا يمنح الدروس الا ذهننا متمسكا شاردة

- طونيو كروجر ١٠٢

حتى ساء رأى أساتذته فيه ، تنطق كل التقارير التي يحملها الى الدار بخيبته ، وكان أبوه — وهو رجل بدين حسن اللبس يضع أبدا زهرة برية في عروة سترته — يتلقى هذه التقارير بغضب وغم شديدين ، أما أمه الجميلة كونسويلا ذات الاسم الموسيقى الغريب والشعر الفاحم والسحنة التي تتباين وسحنة بقية نساء المدينة ، فقد أتى بهما أبوه من أقصى الجنوب — فكانت تتلقى هذه التقارير دون أن تأبه لها أو تتألى بها .

يحب طونيو هذه الأم المتقدة العواطف ، الغامضة ، المنطوية على نفسها ، البارعة في العزف على البيانو والمندولين ، ويرحبه منها . انها لا تفتنم أو تطلق للشكوك التي يثيرها تباین طبعه عن بقية رفاقه ، بيد أنه كان يفضل كثيرا غضب أبيه ، لأنه براه ادعى للكرامة والوقار فهو لا يملك الا الاعتراف بأن أباه حين يزرجه محق في مسلكه هذا ، على حين يجد في زوغان أمه من المناعب وقلة مبالاتها بالهموم شيئا من الاستهانة والطيش ، يحدث نفسه أحيانا بأشياء تدور حول هذا المعنى ، أفلا يكفيني ابتلاء أن أكون كما أنا ، سارح الذهن ، مهموما بأشياء لا ينتبه لها غيري ، واننى غير قادر ولا راغب في تبديل طبعى ، ألم يكن من الأصلح لى أن أجد على الأقل من يقومنى ويعاقبنى عقابا شديدا بدلا من أن تغمض عنى العيون بين رنين القبلات والألحان ، اننا لسنا من العجر الرجل ، بيوتهم عربات مطلية بلون أخضر ، بل نحن أناس أهل جد ووقار . . القنصل كروجر ، أسرة كروجر . .

وكان يحدث نفسه مرارا : لماذا خلقتنى الله نشازا ، بنى وبين الناس اختلاف ، وبينى وبين أساتذتى جفوة ، أحس بين أقرانى أننى غريب عنهم ، ها هم تلاميذ

طونيو كروجر ١٠٤

المدرسة ، سواء فيهم من يحظى بالثناء عليه ، أو من يستتيم مرتاحا في قبضة الهوان ، ما لهم إلا يرون مثلى ما في نفوس أساتذتهم من عوج يثر الضحك والرائاء معا ، ما لهم لا ينظمون الأشعار ، أفكارهم أفكار سواد الناس ، لا يمتنع الجهر بها ، ما أعذب اطمئنان أفئدتهم حين يخالطون الناس فيجدون أنفسهم مع كل فرد منهم على وفاق أما أنا . . . ما الذي دهاني ، ماهى علتى ، وما هو مالى ومصيرى . . .

وهذا الدأب من طونيو على تأمل دخيلة نفسه وهذا التفتحص المديد منه لما عساه أن تكون روابطه بالحياة — كل ذلك له شأن كبير في تعلقه برفيقه هانز هانسن ، انه متعلق به ، ولا لأنه وسيم ، ولأنه فوق ذلك رفيق مرح يهوى ركوب الخيل والألعاب الرياضية ، يعوم كابطال السباحة ويحظى باعجاب الناس ورضائهم ، يكن له أسانذته ودا من قلوب لا تملك لاتجذابها بسحره الا أن ترق له وتحنو عليه ، ينادونه من قبيل الاعزاز باسمه الأول مجردا عن اللقب وبوالونه بالتشجيع بثنتى السبل ، يسعى رفقاؤه لاكتساب مودنه ، ويستوقفه الرجال والنساء في الطريق ويلمسون خصلة شعره الأشقر المنفلتة من تلتسوته وهى فى لون أعواد الكتان ويقولون : صباح الخير على عينوك يا هانز ما أبهى خصلة شعرك ، هل أنت دائما أول الفصل . سلم لنا على بابا وماما يا حبيبى يا قمر يا حلبوه .

هكذا هانز هانسن وطونيو مذ عرفه يضنيه حين يلحمه مطمح يخالطه حسد يحس بلهيبه فى صدره ، ويقول فى سره : لو كانت لى عينان زرقاوان كعينيك ، ليت لى أن أعيش منلك فى وفاق وانسجام مع العالم كله ، انك تنفق كل وقتك بحصافة وتعقل ويحترمك

طونيو كروجر ١٠٥

جميع الناس ، اذا فرغت من أداء واجباتك المدرسية ذهبت للترب على ركوب الخيل أو شغلت نفسك بنشر الأشجار ، وحتى في اجازتك على شاطئ البحر تكرس وقتك للسباحة أو اللهو بركوب الزوارق ، بالمجداف أو بالشراع ، على حين اظل أنا راقدًا على الرمل ، كسولًا عاطلًا ، مستغرقًا في أحلامي ، أثبت نظرتي لكى أرتب كيف نمسح يد خفية على وجه البحر فتتعاقب عليه ملاح متباينه ، حق لك أن نكون عينك في صفاء زرقته ، ليتنى كنت مثلك .

ولم يحاول طونيو أن يقلد هانز هانسن ، ولعله لم يأخذ مأخذ الجد تشوفه للنشبه به ، وان نملكنه رغبة ممضة في أن يظفر وهو كما هو لا يتغير ، بانعطاف هانز نحوه ، ان طونيو يسعى لاكتساب وده ، على طريقته هو ، طريقة يلتزمها طبع متند ، عميق الجذور، يسرف في انكار الذات وتشرب الألم والكآبة ، ولكنها كآبة أشد لسعا له وافتراسا من العواطف الجامحة المتوقعة من قلب فتى له مثل هيئته الغربية وطبعه الفريد .

ولم يذهب تودده لزميله سدى ، فان هانز أصبح واثقا أن طونيو أعلى مرتبة منه وأكثر قدرة بفضل طلاقة لسانه على التعبير بسهولة عن المعانى العويصة ، وأدرك حق الإدراك أن الود الذى يتلقاه ويحمده من صديقه قد بلغ من القوة والصفاء ذروة غير مألوفة ، وسر طونيو أن بادل هانز ودا بود ، ولكنه سرور يخالطه عذاب مبعثه الغيرة وخيبة الأمل وعقم كل جهد ببذل في الارتباط معا برباط روحى ، اذ من العجيب أن طونيو وهو يحسد صفات صديقه لا ينفك يجاهد لحمل هانز

طونيو كروجر ١٠٦

على أن ينطبع بطبعه هو ويصبح على شاكلته ، انه
جهاد لا ينجح الا في لحظات عابرة ثم يجد أن هذا النجاح
ان هو الا السراب بعينه .

وسار الزميلان ، تتبادل أيديهما على قرطاس به
حلوى اشترياها من بقال في شارع الطاحون ، وقال
طونيو :

— اسمع ، فرغت من قراءة كتاب جدير بالاعجاب ،
كتاب بديع ، ينبغي لك أن تقرأه ، يا هانز ، انه مسرحية
(دون كارلوس) من تأليف شيلر . ان شئت اعرتة
لك ..

أجابه هانز :

— لا .. لا .. دعنى منه ، يا طونى ، مثل هذا
الكتاب لا يشوقنى . اننى أفضل ما لدى من كتب مؤلفة
عن الخيل ، اؤكد لك انها تضم صوراً بديعة سأطلعك
عليها حين تأتى لزيارتى ، صور رسمت خطفا للخيل
وهى تجرى ، فيها تثبيت لهثة عدوها وخببها وقفزها ،
أوضاع مختلفة لا تلاحظها العين لأن الخيل تمرق أمامها
بسرعة . أجابه طونيو مجاملاً له :

— كل الأوضاع ؟ يا له من شيء بديع ولكن لنعد
الى دون كارلوس ، انها مسرحية تفوق كل خيال ، سترى
فيها كلاما يبلغ من جماله أن يزلزل قلبك ويرجه رجا ،
كانما فاجأك شيء ينفجر .

أجاب هانز :

— شيء ينفجر ، ماذا تعنى ؟

— خذ مثلا حين تصف المسرحية كيف أجهش الملك
بالبكاء حين علم أن الماركيز قد خانته ، ولكن الماركيز لم
بخنه الا بسبب حبه للامير ، فرضى أن يفندى هذا الأمير
بنفسه . أنفهم ؟ وعلا من داخل خلوة الملك صوت نحيبه

طونيو كروجر ١٠٧

حتى سمعه رجال الحاشية من وراء الأبواب وأخذوا يتهامسون : انه يبكي ، الملك يبكي ، أسقط في يدهم وتملكهم الهلع ، فالملك معروف بصلابته وقسوته الفظيعة ولكن لا عجب ان يبكي الملك . اننى أرثى له أكثر مما أرثى للامير والماركيز معا ، فقد كان دائما يعانى عذاب الوحدة والحرمان من الحب ، فلما ظن أنه وجد انسانا يستطيع أن يتعلق به اذا بهذا الإنسان يغدر به ويخونه . نظر هانز خلسة الى وجه صديقه فوجده ينطق بأحاسيس أثارت اهتمامه بمسرحية شيللر ، فاذا به يضع ذراعه في ذراع طونيو ويقول له :

— وكيف خان هذا الرجل يا طونيو ؟

وبدا طونيو بشرح له مستعينا بحركات من يديه أيضا كيف كانت الخيانة ، فاذا بهانز يصيح فجأة :

— ها هو ذا ابروين ايمرتال .

فصمت طونيو ، فليذهب الى الجحيم ويغور في داهية ابروين هذا ، من أين طلع علينا لبزعجنا ، عسى الا ينضم الينا فيصدع رأسنا طول الطريق بحديثه عن ركوب الخيل .

ذلك أن ابروين يتلقى هو أيضا دروسا في ركوب الخيل ، هو ابن مدير المصرف ويسكن حيث لقاه خارج المدينة ، وكان قد تخفف من مخلاته وأقبل عليها بساقيه المقوستين وعينيه المشدودتين الى الصدغين ، حياه هانز وقال له :

— اننى أتمشى مع كروجر ، نترىض .

فأجابه ابروين :

— كنت في طريقى الى المدينة لأمر كلفت به ، ولكنى سأصحبكما قليلا ، ماذا في القرطاس ؟ حلوى من عصير الفاكهة ! حقا ! شكرا ، أحب أن أذوقها أيضا ، أسمع

طونيو كروجر ١٠٨

يا هانز ، لا تنس موعد الدرس غدا (ها هو ذا يريد
أن يتحدث عن ركوب الخيل !) وقال هانز :
— اننى فرح لانهم سيعطوننى حذاء برقبة عالية لقاء
تفوقى على زملائى فى التدريبات .
وقال ايمرتال وعيناه لا تزيدان عن شقين ضيقين
يلمعان :

— و انت يا كروجر ، الا تتلقى ايضا دروسا فى ركوب
الخيال . .
.. لا . .

نطقى بها طونيو مغمغما لا يكاد يبين .
وقال هانز هانسن :

— ينبغي يا كروجر أن تطلب الى ابيك أن يلحقك
بهذه الدروس .
— سأفعل .

حز فى قلبه لحظة أن هانز ناداه بلقب الأسرة لا باسمه
الأول . كما كان ينمى دلالة على رفع الكلفة ، وأحس
هانز ولا ريب بشعور صديقه فقال له موضحا .
— ناديك بلقب كروجر لأن اسمك غريب شاذ كما
تعلم اننى لا احب هذا الاسم أبدا ، طونيو ، ليس
هذا باسم ، والذنب فيه ليس ذنبك فلا حيلة لك فيه .
وقال ايمرتال وهو يتخذ سمة من يريد التوفيق
بينهما :

— أظن أنهم أطلقوا عليك هذا الاسم لأن له جرسا
غربيا وفريدا .

وسرت المرعشة فى شفتى طونيو ولكنه تمالك نفسه
وقال :

— نعم ، انه اسم سخيف ، وكنت أفضل عليه

طونيو كروجج ١٠٦

— صدقانى — اسما مثل هنرى أو غليوم ، ولكنى سميت به تبعا لخال لى ، اسمه أنطونيو ، إذ أن أمى كما تعلمان ليست من أهل هذه البلاد .

ثم لاذ بالصمت وترك زميله يخوضان فى الحديث عن الخيل وركوبها ، وكان هانز قد وضع ذراعه تحت ذراع ايمرتال يحدنه باهتمام وحماس ، هيهات أن يلذ لهما حديث عن دون كارلوس ، وأحس طونيو بالدموع تدغدغ خياشيمه ، وبذل جهدا كبيرا للتحكم فى نغته وهى لا تنفك عن الارتعاش .

ان هانز لا يحب فيه اسمه ، ما العمل ؟ حقا ان اسم هانز واسم ايروين شائعان لا يثيران الانتباه والاستغراب ، أما طونيو فهذا اسم شاذ عجيب ، نعم ، ان طونيو يعلم أنه سواء أراد أم لم يرد ، مخلوق شاذ من جميع الوجوه ، يباين الطراز المألوف من أولاد الناس الطيبين ، مع أنه ليس من سلالة غجر رحل ، مسكنهم عربية خضراء ، انه ابن القنصل كروجج ، من أسرة عريقة ، ولكن لماذا يناديه هانز اذا انفردا معا باسم طونيو ثم يعدل عن ذلك حين ينضم اليهما ثالث ، هل يخجل منه ؟ انه يمنح طونيو أحيانا اهتمامه ووده ، ألم يضع منذ لحظة ذراعه فى ذراعه ويسأله (وكيف خانته هذا الرجل يا طونيو) ومع ذلك ما أن قدم عليهما ايمرتال حتى تنهد مرتاحا وتخلى عنه وتبرع بتجريح اسمه غير المألوف ، ما أشد الألم الذى يبعثه ادراك هذه الأشياء بوضوح ، يعلم أن هانز يميل اليه بود حين ينفردان ، ولكن اذا قطع خلوتها نال خجل منه وضحى به ، ، وارتد طونيو من جذب الى وحدته ، يفكر فى الملك فيليب ، الملك الذى بكى .

وقال ايروين ايمرنال :

طونيو كروجر ١١٠

— ياه ، ينبغى أن أنصرف فوراً ، وداعاً لكما
 وشكراً على الحلوى .
 وحرك ساقيه المقوستين وابتعد جرياً فوق حافة
 الطريق المرتفعة . وقال هانز بنعمة الوثوق :
 — اننى أحب اميرتال .
 كانت له طبائع الصبى المدلل الواصل بنفسه فى
 اعلانه لما يحب وما يكره ، كأنه تفضل منه أن يوزع
 الحظوظ .

ثم استطرد هانز يتكلم عن دروس ركوب الخيل
 لأنه كان اندفع فى هذا الحديث . وكانا على كل حال
 قد اقتريا من منزل هانز ، ذلك أن طريق الأسوار ليس
 مفرطاً فى الطول ، أحكم الصبيان تثببت قلنسوتيهما
 ومالاً برأسهما يغالبان الرياح العاتية الرطبة وهى
 تصلصل وتثن بين غصون الأشجار العارية ، وظل
 هانز يتكلم وطونيو لا يرد عليه الا بجهد بأن يقول له
 بين الحين والحين (نعم) أو « حقا » لا يأبه أن وضع
 هانز فى حدة حديثه ذراعاً فى ذراعاً ، فلم يكن مايفعله
 سوى حركة يتذرع بها لاعلان رغبته فى مصالحته فهى
 لا تعنى عند طونيو شيئاً .

وخلفا وراءهما طريق الأسوار غير بعيد من المحطة
 ورأى الاتنان قطارا يمر وهو يلهث وينتزع سرعته
 بعناء ، وأخذاً من قبيل التسلية يعدان كم عربة تجرها
 القاطرة ، ولوحا بأيديهما الى الرجل الجالس فى
 مؤخرة السبنسة وهو غارق فى معطف من الفرو .
 ووقفا أمام دار هانز فى ميدان الزيزفون ورغب
 هانز أن يصرى صديقه وسيلة حديثة اكتشفها للهو
 والتسلية ، فتسلق الباب الحديدى وقام بتحريكه يمينا
 ويساراً حتى علا صريره . ثم ودع كل منهما صاحبه

طونيو كروجر 111

وقال هانز :

— ينبغي أن ادخل الآن ، الى اللقاء يا طونيو ،
في المرة القادمة سأكون أنا من يصحب الآخر الى
داره ، أعدك بذلك . أجابه طونيو .

— الى اللقاء يا هانز ، نزهنا كانت جميلة .
وشد كل منهما على يد زميله بيد مبلله ، لطحها
لون الصدا من أثر عبثهما بالباب الحديدى ، ولكن
هانز حين التقت عيناه بعينى طونيو بدا كأن وجهه
تعلوه مسحة من الندم ، وقال :

— سأقرأ قريبا مسرحية (دون كارلوس) ان قصة
الملك المنفرد فى خلوته لأبد أن تكون شيقة .
ثم وضع حقيبته تحت نراعه ومضى يشق الحديقة
جريا ، وقبل أن يختفى داخل الدار التقت ثانية الى
طونيو ولوح له بيده .

وانصرف طونيو كروجر وهو يتألق بشرا ، يمشى
فى خفة كأنه يطير بجناحين ، تدفعه الرياح الى الأمام ،
ولكن ليس من دفعها وحده أن تتابعته خطواته
بسهولة .

ان هانز سيقرا (دون كارلوس) وهكذا سيملكان
شيئا لا يستطيع أميرتال ولا أحد غيره أن يشاركهما
فى الحديث عنه ، ما أجمل هذا الوفاق بينهما ، ومن
يدرى ، لعله يستطيع أن يحمل هانز على أن ينظم
الشعر مثله ، ولكن لا ، لا ، أنه لا يريد بذل هذه
المحاولة ، ان هانز ينبغي الا يصبح توأما لطنيو ،
بل ينبغي أن يبقى كما هو بصفاته كلها ، بفروسبته
وفتوته ، محفظا بخلائقه التى من أجلها تحبه الناس ،
ويحبه طونيو أكثر منهم ، ولا ضير على هانز أن يقرأ
(دون كارلوس) .

طونيو كروجر ١١٢

ودخل طونيو المدينة من بوابة عتيقة واطئة في
عرض أسوارها الغليظة ، وسار بحذاء الميناء وبين
المنازل نوات القمم المثلثة الأضلاع يصعد بجهد علوة
شوارع مبللة تصفر فيها الرياح حتى بلغ منزل أسرته .
ها هو ذا يشعر أن قلبه تدب فيه الحياة ويمتلئ
بأمانى موجعة وتحسر مكتب وقدر قليل من التعالى
والاحتقار ، وفيض كبير من الطهر والعفاف .

الفصل الثاني

انجه انجبور هولم بنت الطيب هولم القاطن في ميدان السوق الذي تتوسطه نافورة مديبة مزخرفة وفق الطراز القوطي - كانت هذه الفناة الثقراء هي التي احبها طونيو كروجر حين بلغ السادسة عشرة من عمره .

كيف حدث هذا ؟ انه رآها الف مرة دون ان تستأثر - بالتقاته ، ولكنه شاهدها ذات مساء يجلبها نوع من الاثراق ، تلفت رأسها الى جنب وهي تتحدث الى صديقة لها وتضحك ضحكتها التي تتم عن النزق والدلال ، ولحها نمد الى قذالها يدا هي يد الفتاة الغريبة لا هي جد جميلة ولا هي جد رشيقة ، على حين انحصر كمها الأبيض المهفف وبان كوعها ، وسمعتها تلفظ بلهجة التأكيد وبصوت منغم دائيء. كلمة عابرة وسط حديثها فامتلاً قلبه من أجلها بفتنة تفوق في عنفوانها ما كان يحس به من قبل وهو ما زال صبيا صغيرا حين كان يرنو الى هانز هانسن .

حمل لها ذلك المساء صورة انطبعت في قلبه لضفيرة الشعر الاشقر الغليظة ، لعينين لوزيتين زرقاوين ضاحكتين ، لحدبة هينة لأنف يعلوه نمش خفيف ، وظل ليلته ساهرا لا يقدر على النوم لأن نغمة صوتها لا تفارق أذنه وحاول وهو واجف القلب ان يقلد همسا لهجتها وهي تؤكد تلك الكلمة العابرة في حديثها لصاحبتها .

طونيو كروج ١١٤ .

أبعد هذا العناء دليل على أن الذي يعهده في نفسه
هو الحب بعينه .

يعلم أن الحب لمن يمنحه إلا أحمالا من الضنى
والعذاب والذل ، وأنه يحطم النفس ويملا القلب
بالأنثى دون أن يترك له ما يحتاجه من الهدوء
وراحة البال لكي يتأمل هذه الأنثى حتى تتضح له
عالمها وحتى يخلق منها في ظل السكينة كيانا متكاملًا
غهما وقابلا للتعبير عنه بدقة ووضوح ، ومع ذلك
تلقى الحب وهو جذل به واستسلم له كل الاستسلام ،
يغذيه بكل طاقة لروحه ، أنه يحرص عليه وينعم به ،
هو مدرك أن الحب سيضفي على حياته ثراء وتوهجا
واقادا وهذا هو ما يصبو إليه .

وهكذا وقع طونيو في غرام أنجه أنجبور المرحلة في
صالون السيدة هوستيد ، — زوجة القنصل — وكان
خاليا من أوائه لأن التوبة كانت عليها تلك الليلة في
استضافة دروس الرقص ، وهي دروس خاصة
لا ينضم إليها إلا أبناء أرقى الأسر يجتمعون في منزل
بعد آخر بالتناوب لتلقى هذه الدروس . وكان الأستاذ
كناك — معلم الرقص — يأتي من هامبورج كل أسبوع
مرة لنلقينهم هذه الدروس .

ان اسمه كاملا هو فرانسوا كناك ، ولكن حق
معرفة أن تراه بشحمه ولحمه ، يواجه تلاميذه قائلا
بلغة فرنسية سقيمة النطق :

— لى الشرف أن أمثل أمامكم واسمحوا لى ان
أعرفكم بنفسى ..

ثم يستطرد بالألمانية :

— النطق بهذه العبارة ليس وقته عند احناء الراس
أمام من تتقدمون إليه بل فور رفعها بعد احنائها ويكون

نطقها بصوت متئد ولكن لابد أن تكون الألفاظ واضحة كل الوضوح ، ان التزامكم بتقديم أنفسكم باللغة الفرنسية لا يحدث كل يوم ولكن اذا أتيح لكم أن تفعلوا ذلك بلغة سليمة متقنة فاطمنوا الى صواب تصرفكم كما لو كنتم تتكلمون بالالمانية .

يرتدى الأستاذ كذاك (ردنجات) من قمائش أسود براق مفصل على جسمه البدين أحسن تفصيل ، ويهبط كل ساق في سرواله فتنتى له حافة متهدلة على خذائه المكشوف تزيينه أنشودة من حرير ، عيناه العسليتان تجولان فيما حوله يملأها الاحساس بجمالها سعادة واستكفاء يورث صاحبه الملل ، انه يسحق تلاميذه سحقا بفرط تأنقه وضبطه لحركته ووثوقه بنفسه ، فهو يتقدم بخطى متوثبة متموجة متزنة معا — خطى لا يألها ألا بلاط الملوك — ويتجه الى ربة الدار وينحنى أمامها ويصبر الى أن تمد له يدها فاذا فعلت تمتم بكلمة شكر وتراجع بخطوة رشيقة ودار الى جنب معتمدا على طرف من مشط قدمه اليسرى وابتعد وهو يهز وركيه ، من دروسه قوله لتلاميذه :

اذا شاء أحدكم الانصراف عن اجتماع فعليه أن يتراجع القهقري نحو الباب ، وهو ينحنى مرارا ، واذا شاء تقرب مقعد اليه فينبغي ألا يحمله من احدى قوائمه أو يجرجره على أرض الصالون ، بل يتناوله بخفة من مسنده ويضعه برفق حيثما يرغب ، وينبغي لأحدكم الا يجلس شابكا يديه على بطنه عاقدا لسانه كالحجر بين شدقيه .. وكان اذا حدث لك أن هفوت وفعلت ذلك فان الأستاذ كذاك لا يتورع من الاسراع فورا الى نقليدك بسخرية تبعث فيك الخجل واستقباح فعلك الى نهاية عمرك .

تلك هي دروس حسن السلوك أما عن الرقص فان
الاستاذ تجلى له فيه براعة اتم ان جاز القول بأن في
براعته زيادة لمستزيد ، تتلالا في الصالون العريان
أضواء الثريات وشموع المدفأة ، وعلى الأرض نثار
من مسحوق التلك ، ويصطف التلاميذ وهم صامتون
في نصف دائرة ، وفي الحجرة المجاورة تجلس الإهيات
والعمات والخالات على مقاعد مكمسة بقطيفة ذات
وبر ، يرقبن من خلال نظاراتهن المقربة كيف يقف
الاستاذ كذاك مائلا الى الأمام ممسكا من الجانبين طرف
الردنجات بأصبعين ، محركا ساقيه بحركات رقصة
المازوركا أما اذا أراد أن يبهر الجميع فانه يشب في
الهواء فجأة وبلا داع هازا ساقيه ضاربا احدهما
بالأخرى في سرعة فائقة مؤديا بذلك حركة عسيرة
من حركات الرقص ثم يسقط على الأرض فوق قدميه
في دوى مكتوم وان لم يبق في الحجرة شيء الا ارتج
واهتز ، يقول طونيو في سره : ياله من العبان ، ياله
من قرد ، ياله من مسخ لا مثيل له ، ولكنه يلمح أنجه
هولم المرحلة وهي مستغرقة في تتبع الاستاذ كذاك
بابتسامة تعلوها الإعجاب ، لم يكن من أجل هذا وحده
ان أحس حقا باعجاب لما يديه الاستاذ من تحكم رائع
في حركته ، بل هو مسحوق أيضا بنظرته الهادئة
المطمئنة اذ أنها لا تتغلغل ففسير غور الأشياء حتى
يتجلى باطنها المعقد الباعث على الشجن ، لا علم
لعينيه بشيء في الوجود الا بأنهما عسلقتان وجميلتان ،
هذا هو سر خيلائه واعتداده بنفسه ، حقا انه من
الحق والصغار والهوان أن يمشى أحدنا مشيته ،
ولكن الاستاذ مع ذلك محبوب لأن له فتنة طاغية ، ان
طونيو يفهم انجه الشقراء الحلوة ويقدرها حين تنظر

طونيو كروجر ١١٧

الى الأستاذ كما تفعل ، أما هو ... هل سيتأتى له في يوم أن ينظر الى فتاة مثل هذه النظرة .

نعم ، حدث له ذلك ، انها مجدلينا فرميهرن بنت المحامى فرميهرن ، وهى فتاه وديعة لها عينان واسعتان سوداوان ، تنطقان بالصدق والجد وحب التعاطف ، انه يحدث لها كثيرا أن تتعزق قدمها وهى ترقص فتكاد تسقط على الأرض يراها حين يأتى دور الرقصة التى يؤذن فيها للفناة أن تختار فئتها لا يقع اختيارها الا عليه ، هى تعلم أنه ينظم الشعر وقد طلبت اليه مرتين أن يطلعها على قصائده ، كم من مرة أمالت رأسها لتنظر اليه وهى واقفة على بعد منه ، ولكن لا شىء من هذا بهمه ، أنه يحب انجه هولم ، انجه الشقراء ، انجه المرححة التى تستسخفه ولا ريب لأنه يقرض الشعر ، انه يتأملها ، يتأهل عينها اللوزيتين الناطقتين بالغبطة والسعادة والتهكم ، يحرق قلبه ويعذبه فى الم قاس طموح وحسرة من أنه مطرود من محضرها ، تفضى عليه أن يعيش أبدا مجهولا منها .

وارتفع صوت الأستاذ كذاك قائلا بنغمة هيهات لأحد أن يقلدها :

— الزميلان الاولان ، الى الأمام !

لقد بدأ درس رقصة الرباعيات ، ما كان أشد جزع طونيو حين وجد نفسه فى رباعى واحد مع انجه هولم ، انه يتجنبها جهد طاقته ولكن الرقصة ألزمته أن يبقى بجوارها طول الوقت ، يكبح عينيه عن التطلع إليها ومع ذلك فان نظراته لا تقارنها هاهى ذى الآن تتقدم ، يقودها شاب أحمر الشعر هو

طونيو كروجر 118

فرناند ماتيسين تخطو في خفة كأنها طيف وتسرع الى موقفها الذى تستعد عنده لبدء الرقص وهى تطوح صغيرتها الى الورا ، ثم تقف وهى تسترد أنفاسها أمامه هو وجها لوجه ، وبدأ ضارب البيانو هنزلمان — وفرق بين الضرب والعزف ! — يضع يدين بارزتى العظام فوق أصابع البيانو ويلمسها ، وبدأت رقصة الرباعيات .

وأخذت انجه هولم وهى تواجهه تثنى يمنا ويسرة ، الى الأمام والى الخلف ، وتخطو وتدور ، يسطع عطر من شعرها أو من ثوبها الأبيض الرقيق ، يتشممه كلما دنت منه فلا يزيد امتلاء عينيه بها الا اضطرابا فوق اضطراب يحدث نفسه سرا : انجه ، ياحلوتى الغالية ، انى أحبك ، ييث فى هذه الكلمات كل اله من أنها منصرفة الى الرقص بحماس وغبطة دون أن تلتقى اليه بالا ، واستعادت ذاكرته قصيدة للشاعر ستورم يقول فيها (بودى أنا أن أخلد الى النوم ، أما أنت فحلال لك الرقص) يتعذب طونيو لتلك الحماسة المزرية التى تقضى عليه بأن يمتن حبه بشيء تافه سخيف مثل الرقص .

وصاح الأستاذ كناك معلنا دورة جديدة للرقصة .

— الزميلان الأولان .. الى الامام !

جاء دور طونيو وزميلته انجه ، أدى لها التحية بأن أحنى رأسه أمامها وهو متجهم ، ثم ارتبك حين لمست يده يدها ولم يحسن أداء الرقصة فقام بحركة ينبغى أن تؤديها فتاة لا فتى .

انطلقت الوشوشة والضحكات من حوله وصاح الأستاذ كناك (أبطلوا الرقص .. ! الى الورا

طونيو كروجر ١١٩

يا آنسة كروجر ويلي عليك ، لقد فهم الجميع الا انت ، الى الورا ، الى الورا ، ثم أخرج من جيبه منديلا أصفر وأخذ يهزه في وجه طونيو كأنه بهش عليه لكي يعود الى مكانه المرسوم له .

يا آنسة كروجر ! هكذا ناداه الأستاذ هزءا به ، لم يبق أحد لم يضحك ، الفتيان والفتيات ، والسيدات في الحجرة المجاورة ، ذلك أن الأستاذ كناك قلب هذه الهفوة الصغيرة الى مهزلة تضحك التكلى ، وساد الجميع جو من المرح كأنهم في مسرح هزلى ، وكان العازف هانزلمان هو وحده الذى بقى جامد الوجه شأن الأجير الذى لا يعنيه الا أداء عمله والقيام بواجبه ، ولأنه أيضا لف من الأستاذ كناك مثل هذه الغضبات العارمة ، وظل ينتظر اشارة ليبدأ العزف من جديد .

وبدأت رقصة أخرى ، ثم تلتها فترة استراحة ودخلت الخادمة تهتز فوق يديها وتصطك صفوف أقداح ملأى بمشروبات مرطبة ، وتبعثها الطباخة مزودة بالفطائر ، أما طونيو فقد انسحب خلصة من الصالون واتجه الى الدهليز ووقف عاقدا يديه وراء ظهره أمام نافذة مغلقة دون أن يقدر بأنه لن يرى شيئا من خلال نافذة مغلقة وأنه من الحمق أن يظل هكذا واقفا أمامها زاعما أنه يتأمل شيئا وراءها ، أن الذى يتأمله حقا هو دخيلة نفسه ، وهى مفعمة بالغم والتحسر . .

لماذا ، لماذا سعت به قدمه الى هنا ، لماذا لم يبق بحجرته بجوار النافذة يقرأ فى كتاب ويهد طرفه بين آونة وأخرى الى الحديقة وقد جلاها الظلام تنبعث من خلاله شخصخة كثيفة لشجرة الجوز العتيقة ، اليس هذا هو الأخلق به والأقرب الى طبيعه ، حلال للآخرين أن يرقصوا بكل حماس واندفاع دون أن تتعثر لهم

طونيو كروجر ١٢٠

قدم أو تزل لهم خطوة ولكن لا .. لا .. ان مكانه هنا حيث يحس انفاس انجه رغم أنه ينفرد بنفسه بعيدا عنها ، يحاول من خلال ضجة الأحاديث والضحكات واصطكاك الأكواب أن يلتقط صوتها الذي يتوهج فيه نداء الحياة ، انجه ، ما أجمل عينيك اللوزيتين الزرقاوين الضاحكتين ، انجه أيتها الفتاة الشقراء ، لكى يصبح انسان مثلك وسيما مليحا وضاح الجبين مرحا بسام الثغر ينبغي له الا يكون قلبه قد هصره اللشجن وهو يهتز لروائع الشعر ، أن لا يمزقه عذاب الشعر بالعجز عن ابداع نظم هذه الروائع ، هذه هى نكبته .

كان ينبغي لها أن تلحق به ، أن تتبته أنه فارق الجمع وتحس بلواعج قلبه ، أن تتبته خلسة وتلحقه وتتف بجانبه وتضع يده على كتفه وتقول له، تعال ، عد الينا ، اطمنن ، أننى أحبك ، فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ يتسمع طونيو ما يدور وراءه ، ينتظر فى لهفة لا تسوغ لها أن تأتي اليه ، ولكنها لم تفعل ، أن هذه الأشياء لا تحدث فى هذه الدنيا .

هل ضحكت منه هى أيضا كما ضحك الآخرون ، نعم ، انها ضحكت ، عن طيب خاطر ، وقلب منشرح ، غير متحرجة ولا مستائية ، ولكنه لا يصدق أنها ضحكت منه ، أعلاء لحبه لها وحفاظا على كبريائه ، ومع ذلك فانه لم يزل زلته الا لانه لم يكن مالكا لتمام وعيه من فرط انبهاره بجمالها واشراقها ، وماذا جرى حتى ينفجر من الضحك ، ولماذا تصبح الحبة قبة ، صبورا ، سيأتى اليوم الذى يكون فيه عن الضحك لم تقبل احدى الصحف أخرا قصيدة من نظمه ولم ترددها اليه ، لا يطعن فى ذلك أن قصيدته لم تنشر لأن الصحيفة

طونيو كروجر ١٢١

توقفت عن الصدور سيأتى يوم تواتيه فبه الشهرة
فمنشر كل قصائده وتستيقظ له انجه هولم ، ولكن
هيئات ، قد يحدث هذا لماجدلينا فيرميهن النى تتعثر
وتتهادى وهى ترقص ، ليس هذا شأن انجه هولم
المرحة ذات العينين الزرقاوين .. اذن ما جدوى
كده .. ؟

انقبض قلبه لهذا خاطر وهصره الالم .

فمن أشد العذاب أن تحس في نفسك قوى كريمة
سخية متونبة وهى معرقله ومشلولة في قبضة الاكتاب
وانت تعلم في الوقت ذاته أن الذين يسمو اليهم
طموحك المتقد لا يتلقهم في شىء تجاهلهم لك ، انه وان
كان وحيدا مقضيا تحطم أمله غيرة وشعور بالضياح
يتظاهر في المه بأنه يتعالى عليها ويحتقرها ، إلا أنه
رغم ذلك سعيد ، اذ أن قلبه آنئذ تنقد فيه الحياة ،
قلبي يخفق بطرب وأسى لك يا انجه هولم ، ان هذه
الفتاة الشقراء ، الصافية الطبع كجدول صغير رقراق ،
هذه الفتاة النزقة ، الخفيفة القدر ، مثلها عشرات ،
هى النى تعانق روحه شخصها ، ويتنكر لنفسه من
أجلها وهو راض سعيد .

لجأ أكثر من مرة الى الوقوف في ركن منعزل ووجه
ينبىء عن التهاب دمه ، نصل اليه خافضة انغام
الموسيقى وعلطور الزهور واصطكاك الأقداح ، يسعى
لكى يلتقط من وسط ضجة الحفل تأقيه من بعيد صوتك
أنت ، اسمعه وأنا معذب بك ومع ذلك فأنى جد سعيد
كم يستبد به الحنق حين يتيسر له التحدث الى
ماجدلينا فيرميهن ربة الزلات والعنرات فيلقى عندها
فهما وبشاشة ووجها ضاحكا دون أن تتحول في الوقت

طونيو كروجر ١٢٢

ذاته عن أخذ الأمور مأخذ الجد كما يفعل هو ، على حين أن الشقراء انجته حتى حين يجلس بجوارها تبدو له بعيدة عنه ، غريبة ، غامضة ، مذهبه في الكلام ليس مذهبا ولا لغته لغتها ، ومع ذلك فهو في نشوة وسعادة . يقول لنفسه : ليس هناءى الإنسان أن يكون محبوبا ، فهذه سعادة مبعثها الغرور الذى لا يسلم من الشبع والسأم . أما الهناء كله فهو أن تكون أنت المحب ، وأن يتصيد بين الحين والآخر لحظات عابرة يخيل لك فيها أنك محبوب ممن تحبه .

وسجل طونيو كل هذه الخواطر في ذهنه وتتبع دلالتها وأحس بها في أعماق روحه . وأخذ يحدث نفسه : الوفاء ! اننى يا أنجه باق على الوفاء لك الى آخر أيامى ، تلك هى نيته الطيبة ، ومع ذلك يهمس له صوت ، تلفه الخشية والاسى ، ما بالك قد نسيت هانزهانسن مع أنك كتبت تألفه وتسعد بصحبته ، كان أقرب الخلان اليك وأعزهم عندك ، فإذا بك قد نسيت ، ومما يزيد الأمر قبحا وفجاعة أن هذا الهمس الذى يوسوس له بشيء من الخبث قد صدق ، فقد عمل مرور الزمن عمله ، وأفاق طونيو ذات يوم فإذا به لا يجد في نفسه هذا الاقبال على أن يضحى بروحه بلا شرط أو قيد ارضاء لانجته المرحه ، إذ أحس في قلبه بالرغبة والقدرة على أن يحقق في غد ويوسائله هو وحده ، مستقلا بأرادته ، غير مرتبط بأحد غيره ، اعمالا رائعة غير قليلة ، ولكنه كان مع ذلك يطوف بمعبد حبه الذى تنقد جنوته في قلبه بطهارة وبراعة يركع لها ويؤجج شعلتها بما وسعه من حيلة ، لأنه يريد أن يثبت على وفائه ، ومع ذلك ما مر وقت طويل

طونيو كروجز ١٢٢

حتى انطفأت هذه الجذوة ، خلستة وبلا ضجة أو ثورة ، غير أن طونيو ظل مع ذلك زمنا يتأمل معبد حبه الذي انطفأت جذوته ، يتنازعه شعور بالدهشة وشعور بخيبة الأمل من أن الوفاء محال في هذه الأرض. ثم هز كتفيه مستسلما ومضى لحال سبيله .

الفصل الثالث

يهل طونيو على الذرب الذي ينبغي له أن يسلكه
فيسير فيه بخطى بليدة متراوحة ، وهو يصفر بقمه
وينظر الى بعيد ممبلا براسه الى جنب ، فاذا انحرف
عنه الى غيره فلأن بعض الناس ليس لهم طريق
مرسوم .

وكان اذا سئل عن العمل الذي يزعم أن يتولاه
ويعتمد عليه مستقبلا أدلى باجابات متباينة ، إذ كان
من عادته أن يقول انه يعتقد - بضمان من وحى
قلبه - أنه مستنيط لقدرات تعينه على اقتحام أكثر من
مسلك واحد وذلك دون أن يفارقه وعى دفين بأن هذه
المسالك كلها ما هي الا أحلام مستحيلة التحقق .

وحتى من قبل أن يغادر المدينة المحشور داخل
أسوارها وهى مسقط رأسه كانت السلاسل والروابط
التي تشده اليها قد تراخت برفق وعلى مهل ، فان
أسرة كروجر العتيقة تفتتت مرة بعد أخرى وتفرقت ،
في تقدير بعض الناس ان غرابة طبعه كانت نفيزا
بالحال الذي آلت اليه أسرته ، جدته لأبيه - عميدة
الأسرة - ماتت ، وبعد قليل لحقها أبوه ، هذا الرجل
الطويل القامة ، المتفكر ، الأنيق اللبس ، الذي لاتخلو
عروة سترته من زهرة برية وبيعت دار الأسرة
الفسيحة وانطوت صفحاتها وأغلق المتجر أبوابه وانقطع
عمله ، أما أم طونيو ، أمه الجميلة المتقدمة العواطف ،

طونيو كروجر ١٢٥

البارعة في العزف على البيانو والمندولين والتي كانت لا تبالي أقل بمبالاة لشيء يحدث فقد وجدت لها زوجا ما أن مضى عام واحد على ترملها ، بعلمها الجديد رجل موسيقى امام في العزف وله اسم ايطالى ومضت ترافقه في رحلاته الى بلاد بعيدة مشمسة ، وقد رأى طونيو كروجر في مسلك امه شيئا من الطيش والنزق ولكن هل كان في مقدوره او في اختصاصه أن يردها الى الرشيد والصواب ، انه انصرف الى نظم الشعر ولا يقدر حتى أن يبين ويفصح عن المسلك الذي سيختاره لحياته .

هجر مدينته أم الشوارع المتعرجة ، مسقط رأسه ، بمنزلها ذات القمم المثلثة الأضلاع والتي يلفها عويل رياح رطبة ، هجر النافورة وشجرة الجوز العتيقة وخلان صباه ، اليهم كان يفضى بأسراره ، هجر البحر الذي كان يهيم به أشد الهيام دون أن يأنس في نفسه شيئا من حزن ، ذلك أنه كان قد تضنح عمره ورشاده ووعيه بنفسه ، فاستعاض له هذه بهذه المعيشة الراكدة الخاملة التي احتبسته أسيرا في قبضتها ووهب نفسه وكرسها للقيم التي بدت له أسمى شيء على الأرض ، يحس أن الاختيار قد وقع عليه لكي يخلص لها ، وهي التي تبشره بالجد والتشهرة ، قيم الفكر والتعبير التي تبسط جناحيها بابتسام على سرائر البشر ووجدانهم منح نفسه لهذه القيم بكل حماس شبابيه فكافاته بكل ما تقدر عليه من عطاء وأن اجتبت منه بلا رحمة في مقابل ذلك ضربيتها التي لا تتنازل عنها ، هذه القيم هي التي جعلت نظرتة تزداد حدة ونفاذا ، اسمعته نطق المطامع التي تعتلج في الصدور ، كشفت له ارواح الناس ، وروحه هو ، كفلت له

طوتيو كروجز ١٢٦

بصرة تنير له الأعماق وخفايا النوازع والكلام ، في رأى إلا البلاء والحماقة ، اذ الحماقة والبلاء .
 حينئذ ألقى به العذاب وكبرياء التفرد وفتنة تملك الإدراك الى أحضان وحدة مريرة اذ كان من المستحيل عليه أن يخالط أناسا طبعهم خام ونفوسهم لاهية وبلا ملامح ، ينفرون من هذا السر الغامض الذى يطالعهم به اشراق جبهته ، وفي مقابل وحدته أصبح يجد متعة تزداد لذتها مع الأيام فى نبتع اللفظ وتأمل الشكل اذ كان من عادته أن يقول — كما خبر ذلك فى نفسه من قبل — ان ادراك المرء لنفسه يقوده حتما الى الكتابة اذا لم يسعفه ما يهبه له الغوص على المعانى والألفاظ والسعى لبلوغ قمة الكمال فى التعبير من يقظة وجذل .

وجعل اقامته فى المدن الكبرى فى أقاليم الجنوب التى تعمل شمسها فيما يؤمل على انضاج فننه وانمائته بسخاء كأنه نبت المناطق الاستوائية ، لعل ارثالدماء التى كانت تجرى فى عروق أمه هو الذى جذبته الى تلك الأقاليم الجنوبية ولكن لما كان قلبه موانا خاليا من الحب منذ غرق فى مغامرات اللذة البهيمية وارتمى فى أحضان الشهوة والخطيئة الكاوية وكان يجد فى ذلك كله عذابا يفوق الوصف ، لعله أيضا ورث طبع أبيه ، هذا الرجل الطويل ، المتفكر الأنيق ، الحريص على وضع زهرة برية فى عروة سترته — هذا الارث أرهقه وأذاقه أشد العذاب وهو متمرغ فى منتديات السفلة فى قاع المدينة ، أينما كان . هذا الارث هو الذى يوقظ فيه أيضا أحاسيس نفسه فتتهفو بحنان غامض الى متع الروح التى كان ينعم بها من قبل ولا يجدها بين ملذاته الحاضرة .

طونيو كروجر ١٢٧

تملكه تقزز من المتعة الحسية ومقت لها ، وملاهُ
تعطش للظهر والعفاف ، للاستقامة الرضية الودية،
حين يمضى فى تنسم أجواء الفن ، دافئة رفيقة به
معطرة بأريج ربيع سرمدى ، حيث كل الخلائق تنمو
وتضطرم وتثبت فى نشوة خفية ، نشوة الإنجاب . ولم
ينتج له عن ذلك كله الا أنه وهو يتمزق بين أقصى
حدود النزعات ويتأرجح بين مباحج روحية ترطب
قلبه كأنها النسيم العليل ولذات حسية تفتريسه بضراوة
أصبح يعيش وهو يواجه عذابات ضميره بعيشة
مستهلكة له ، عجيبة ، مضطربة ، مخبولة ، يمتنها
هو — طونيو كروجر — أشد المقت .

وكان ينجى نفسه أحيانا قائلا : يا له من ضلال ،
كيف خرج من يدى وقوعى فى كل هذه المغامرات العجيبة
مع أن طبعى ليس من طبع الفجر الرجل مولدهم فى
عربات خضر ولهم ميل الى البوهيمية .

وكان كلما زادت صحته وهنا زاد مزاجه الفنى
رهافة وأصبح متشددا عسير الرضى ، نواقمة ،
متأنقا ، له تأفف من كل شيء مبتذل ، شهيد الحساسية
لكل ما يمس الكياسة والذوق ، فلما خرج لأول مرة
عن صمته تلقاه عشاق الالب بالترحيب والرضى
وسرعان ما أصبح اسمه — هذا الاسم الذى كان
أساتذته من قبل ينادونه به حين يريدون زجره والذى
وقع به على أول أشعاره عن شجرة الجوز العتيقة
ونافورة الماء والبحر — هذا الاسم الذى يختلط فيه
تراث أهل الجنوب وأهل الشمال ، اسم من أسماء
الطبقة البورجوازية أريد له أن يفوح منه عطر بلاد
ساحرة بعيدة — أصبح هذا الاسم فجأة رمزا للباشرة
بقدرات فائقة اذ جمع فى إنتاجه بين الاستمداد من

طونيو كروجر ١٢٨

أعماق تجاربه المريرة وتكريس نفسه لفنه بدأب نادر
المثال ، عنيد ، طموح ، يجاهد لاسترضاء حساسية
ذوقه المرهف الأنوف من الابتذال ، وتحملت روحه
عذابات جمة لكي يسفر مخاضها الأليم عن مؤلفات
بهية رائعة .

لم يكن في عمله يكدح كدح رجل يسعى وراء لقمة
العيش بل كدح رجل لا يريد أن يفعل شيئاً سوى تعهد
عمله ورعايته ، قيمته واعتباره في نظره الا يكون
انسانا محدودا بين الأحياء بل أن يكون
انسانا مبدعا خلاقا ، فالأيام الفواصل بين فترات
الابداع تمر بلا طعم ، بلا جدوى ، عاطل هو فيها
كالمثل حين يغسل عن وجهه الأصباغ التي لا يظهر
بها الا وهو تحت الأضواء فوق خشبة المسرح ، كان
يعكف على عمله في صمت ، محبوبا في عقر داره ،
محتجبا ، مليئا بالاحترار للأمعات من الكتاب الذين
يحق لواهبهم أن توصف بأنها مجرد حلية يتزينون بها
في المجتمعات ، وسواء فقراء أو أغنياء ، يجوسون
خلال الناس بسحن تنم عن التوحش والعصيان أو
باستعراض أربطة للعنق بها فخفخة متمعمة ، شأن
من يؤمن بأنه سعيد ظريف ، فتان الى أقصى حد دون
أن يعلموا أن الأعمال القيمة لا تولد الا في قبضة
معيشة شقية وأن الذي يتعلق بأذيال الحياة لا ينهض
له عمل ، وأنه لكي ينبض لك عمل يدفع الحياة ينبغي
أن يعهد قلبك برودة الموت ويرضى بها ..

الفصل الرابع

وقف طونيو كروجر على عتبة الرسم وهو ممسك قبعته بيده ، بل محنيا رأسه قليلا وقال مسنأذنا ليزاميتا ايفانوفما مع أنها صديقته ووديعة أسراره :
— أتسمحين لى بالدخول ؟
أجابته بلهجتها المنفمة :

— ادخل ، أرجوك ، بلا تكلف ، آمنا وصدقنا أنك رببت أفضل تربية وأنك متمسك بآداب السلوك .
تقول له هذا وهى تنقل الفرشاة ولوح الألوان الى يدها اليسرى لتمد له اليمنى وتصافحه ، مصسوبة نظرتها اليه وهى تضحك وتهز رأسها . قال لها :

— كيف أدخل وأنت مسنفرقة فى عملك ، دعينى انظر ، حقا لقد قطعت شوطا طويلا .
وأخذ ينقل بصره بين التجارب الأولى الملونة المسندة فوق المقاعد على جانبي الحامل وبين اللوحة الكبيرة ، ملأتها خطوط فى مربعات متشابكة مرسومة بالفحم — مشوشة لا تبين وان أضيفت فوقها أول لمسات الفرشاة بالألوان .

كان ذلك فى مدينة ميونخ ، فى طابق علوى من بيت يقع خلف شارع شلنج ، من وراء النوافذ الشمالية العريضة سماء زرقاء وزقزقة عصافير وشمس ساطعة ، ويهب على الرسم من طاقات عالية مفتوحة نسيم الربيع ، عليلا رقيقا ، تخالطه رائحة معاجين هـ — لاعب الشطرنج

طونيو كروجر ١٣٠

الألوان وزيوته التي تغطي الرسم ، وضياء ذهبي لعصر يوم مشمس يغمر عرى الرسم بلا عائق وينير بكرم أرضه فيتبين بعض عطبها كما ينير المنضدة الخشنة بجانب النافذة ، فوقها البرطمانات وأنابيب الألوان والفرش ولوحات المحاولات الأولى — ولا أطار لها — مستندة الى جدران الرسم العارية وينير أيضا هذه الستارة الحريية المنهثة التي تفصل عن الحجرة ركنا معدا لجلسة مريحة ، مزودا بأثاث أنيق ، غشي الضوء اللوحة التي لم تتم بعد ، منصوبة فوق الحامل كما غشي الشخصين الواقفين أمامها : فنان الشعر وفنانة التصوير .

لعل عمرها يقارب عمره ، أى أنها لا تزيد عن الثلاثين الا قليلا وكانت تجلس على مقعد واطيء في أزار حالك ملطخ بمعاجين الألوان ، ونقنها معتمدة على كفها ، لها شعر بنى متموج في حلقات بدأت أطرافها على الجنبين تحول الى لون الرماد ، تنسدل على صدغها وتحيط كالاطار بوجهها الأسمر ، له سحنة أبناء الصقالية ، وجه جذاب له أنف واطيء العرنين ووجنان بارزتان وعينان سوداوان صغيرتان لامعانان، كانت هيئتها نم عن التونر والتحدى ، كأنما تواجه استفزازا أو تحديا نتقخص لوحتها من جنب بنظرة من بين جفنين نصف مطبقين .

وقف الى جانبها ، يده اليمنى فوق خاصرته ، وبده اليسرى تبرم في عجلة شاربه البنى اللون يقطب في تجهم حاجبيه المنحدرين ، على حين أخذ يبعث من شففيه صفيرا خفيفا كعادته ، ملايسه في غاية الأناقة والرف ، سترته لها لون رمادي هادى وتقسيبل محتشم ، ولكن جبينه الذى ترتمس عليه أمارات

طونيو كروجر ١٣١

العذاب ، عنده يفترق شسعره الغليق نصفين فوق رأسه على نحو تستريح له العين لبطانته وتوفيقته — هذا الجبين بدا له اختلاج ينم عن توتر الأعصاب ، ها هي ملامح وجهه — مطابقة لطراز ملامح أهل الجنوب — قد جعلها تقدم العمر ومر التجارب محددة أتم تحديد ، كأنما نقشها وحفرها أزميل نحات في حجر ، على حين بقي فمه محتفظا برسم ينم عن الوداعة ، وكذلك ذقنه ، رسمها لا يزال كأنه من صنع قلم رشيق يهيم بالرقعة .

مكث هذا برهة قصيرة ثم مر بكفه من فوق جبينه وعينه وقال وهو يستدير :

— ما كان ينبغي لى أن أحضر .

— ولم لا يا طونيو كروجر .

— نهضت لتوى عن عملى وجئتك باليزافيتا ، والذي كان يشغلنى فى هذا العمل تمثل لى بعينه وذاته فى رسمك ، الأصل لوحة خام عاطلة ، مبدولة للفنان ، معدة له ، يتشكل فوقها أول الأمر — باهتة مختلطة — محاولات للرسم وتعديل الرسم ثم يضاف إليها بعض بقع من الألوان ، هكذا كان يتراءى لى سير عملى الذى انشغلت اليوم بمعاناته ، فإذا بى حين جئتك أجد أمامى نفس المعاناة ننم عنها لوجتتك ، وأضاف وهو يتشمم هواء الحجر ، ليحس بجوها المعقب برائحة الزبوت والألوان ، نعم ، أجد هنا حين معاناتى للبحث عن الصلح الذى يفض التناقض والتصادم أن هذا هو مرجع عذابى وأنا منكب على العمل فى خلوتى بدارى ، حقا أنه أمر عجيب ، حين يملك الإنسان خاطر فإذا به يجده معبرا عنه أينما ذهب ، يكاد يسمع همسه فى حفيف الريح ورائحة ألوان الرسم وعطور

طونيو كروجر ١٢٢

الربيع ، الست معى ؟ نعم ، انه الفن ، ثم يصاحبه
 شئ آخر ، ما هو وكيف هو وما اسمه عندك ؟
 لا تقولى انه الطبيعة ، لأن الطبيعة ياليزافيتا لا تصيينا
 بالإعياء بعد اسنزاف طاقنا على الخلق كما يفعل
 التعبير الفنى ، حقا كان الأفضل لى ان أخرج لنزهة
 وان كنت غير واثق أنها كانت ستفنعنى ، منذ قليل
 وبالقرب من دارك التقيت بزميل لى هو ادالبرت
 القصصى فقال لى بلهجته العدوانية المألوفة : اللعنة
 على الربيع ، انه أبشع الفصول ، افتقدر يا كروجر
 ان تستبقى فى ذهنك فكرة واحدة رائقة ، ان تقبل
 بهدوء على رسم ملامح وجه ولو بأبسط الخطوط ؟
 ان تظفر بأقل غنم من عملك ؟ ان تحدث الأثر الذى
 نريده ؟ افتقدر ان تفعل شيئا من هذا أيام الربيع حين
 يدغدغ الدماء فى عروقك بلا حياء ، ينفض جسدك
 حشد من الأحاسيس المتطفلة مخلوعة العذار ، ماتكاد
 نقرسها حتى تجدها سوقية مبتذلة ، عقيمة ، لا طائل
 لك من ورائها ، وأضاف زميلى هذا : أما أنا فساذهب
 الى المقهى ، فهذا موقع حياوى لا يتأثر بتقلب الفصول
 كأنما يتمثل لى فيه اذن أعلى سماء يبلغها التعبير
 الفنى ، لا ينزل منها الا أنبل الأفكار ، هذا ما قاله
 لى قبل أن يضى الى المقهى ولينى صحبتته .
 امنعها حديثه فقالت له :

— حديثك شيق ، ودعنى اقول لك ان الدم الذى
 بدغدغ العروق بلا حياء ليس دما وقاحا أنه على حق
 على نحو ما ، الربيع ليس أفضل الفصول ، قد يسدق
 هذا القول ولكن اسمع لى الآن ، ربيع أو لا ربيع ،
 لا بد لى ان أنجز فى عملى خطوه صغيرة ، ان اتم رسم
 بعض الملامح ، ان أحدث اترا أريده كما يقول زميلك

طونيو كروجر ١٢٢

ادلبرت ثم بعدها نجلس فى الصالون ونشرب الشاي وتنطلق فى حديثك كما تشاء ذلك أنى أجحك اليوم متقلا بالهموم وتود ان تخفف منها ، أما الآن فخذ راحتك حيث شئت بجانبى ، مالا فوق هذا الصندوق، هذا اذا كنت لا تخشى المساس بثيابك الارستقراطية. واجابها وهو يرقب كيف تخط معاجين الألوان فوق لوحها .

— دعى ملابسى فى حالها باليزافيتا ايفانوفا ، اتريدين أن أخاط الناس وأنا مرتد ستره من القطيفة ممزقة أو ستره من حرير احمر قان الى آخر هذه المظاهر المعروفة عن الفنانين ، حقا ان الفنان لا يسلم من نزعة الى البوهيمية ، ولكن ينبغى له ان يسترها فى قلبه ، أما عن مظهره فيلزم ان يكون ملبسه معنى به ومسلكه بلا عوار ، كلا ، قلبى ليس متقلا بالهموم اليوم ، المسألة أنى اواجه مشكله أو تناقضا يشغلنى ويمنعنى عن العمل ، نعم ، فيم كنا نتكلم ، آه ، عن ادلبرت القصصى ، وقوله لى ان الربيع هو أشنع الفصول ، هذا حكمه وقد نفذ حكمه فمضى الى المقهى، اعترف لك أننى منله ، وأجد أن الربيع يصيب أعصابى بالنوتر وبأجناس من الأحاسيس الوضيعة اللذيذة فى آن واحد ، أنا أيضا لا أسلم من الاهتزاز لها غير أنى لا أستطيع أن أنحى باللائمة على الربيع أو أن احتقره لهذا السبب اذ أشعر فى قرارة نفسى بالخجل ازاء سذاجة تحاييله على القاء الشباك فى طريقنا ، ازاء اعتزازه بنضارة شبابه التى لا نعرف الهزيمة ، فأصبحت لا أدرى هل ينبغى لى أن أحسد ادلبرت أو احتقره لانه غير مبتل بمثل هذه الأحاسيس وفى قلبه متلى .

طونيو كروجر ١٤٤

حقا لا أحد يجيد العمل في فصل الربيع ، لماذا ؟
 لأن الاحساس به يتغلغل في أعصابنا ، والكتاب
 الأغرار هم الذين يعتقدون أن الفنان أسر أحاسيسه
 وأنها هي التي تقوده ، وكل فنان صادق يبنسم برتاء
 لهذا الرأي الخاطيء الذي يصدر عن السذاجة والعجز ،
 ذلك أن فيض القلب ليس في نظر الفنان هو العنصر
 الأساسي في عمله ، هذا الفيض ما هو الا المادة
 الخام ، المغفل في ذاتها فيتناولها الفنان بلا انفعال ،
 ويسيطر عليها ليشكل منها صورة جمالية دون أن
 يفعل ، بل يعمل كأنها بتسلى ، كأنها عمله على هذه
 الصورة هو عنده نوع من اللعب ، أما اذا احتفل
 بفيض قلبه غابة الاحتفال وتأثر به أشد التأثر وحشد
 كل قواه لخدمته فان عمله يستحق أن يوصف بأنه
 فاشوش في فاشوش ، لأن الفنان اذا تضعضع
 واستجاب لعواطفه كل الاستجابة فلن يخرج من يده
 الا عمل ثقيل الوطأة ، خام ، مهالك ، متخبط ،
 مقبض ، ممل ، مبتذل ، بلا جذور ، بلا اطار ، طعام
 بلا ملح ، أى عمل خلو من روح الدعابة ومؤدى هذا
 كله أن يكون وقع هذا العمل عند القراء هو عدم
 المبالاة وعند الفنان هو خيبة الأمل والأسى . صدقيني
 باليزافينا ، ان الأثر الأسى الناجم عن التضعضع
 للعواطف أو عن العواطف ذاتها ابان انتقادها سبكون
 دائما عملا مبتذلا ، لا قدرة له على النفع أو الامتاع ،
 اذ لا ينجم أثر له طابع جمالى الا عن اهتزازات جهاز
 عصبى يكون مشويا ببلاء يسلم منه عامة الناس ،
 أعنى به هذا الجهاز العصبى الذى يختص به الفنان
 وحده وما يصحب اهتزازات هذا الجهاز عن جذل
 رطب ، بلا حمى ولا شرر متطاير .

طونيو كروج ١٣٥

وكأني أقول أن الفنان ينبغي له أن يبقى الى حد ما خارج عجينه الانسانية ، أن يتجرد منها بقدر ما ، وتكون له مع هذه الانسانية معاشة ولكن من بعيد لبعيد ، غير ناظر بمسلكه هذا الى تحقيق مصلحة أو غنم ، حتى يجد نفسه بفضل القدرة التي تملكها أو في الحقيقة بفضل اغراء هذه القدرة له على استخدامها خليقا بأن يعبر عن هذه الانسانية وكأنها لعبة بين يديه ، أن ينقل البنا صورة لها تسم بحسن الذوق والاصابة معا ، أن تملك موهبة الأسلوب والشكل والتعبير هو في ذاته دلالة بديعة على أن الفنان يلقي الى الانسانية نظرة من بعيد ، وهو بارد الأعصاب غير منفعل ، نعم ، هذا حرمان وتجرد لا مفر منهما للفنان ، فالعواطف السليمة العفية — مهما كان رأيك فيها — لا شأن لها بمزاج الفنان ، ولا حكم لها عليه ، انما يعهدا في نفسه فور أن يرتد ويصبح واحدا من عامة الناس ويبدأ قلبه ينبض بمثل مشاعرهم واحاسيسهم ، أن ادلبرت يدرك هذا وهذا هو سبب ذهابه الى المقهى ، وهي بالنسبة لفصل الربيع ميدان محابيد .

قالت له مليزافيتا وهي تغسل يديها في وعاء من الصفيح :

— حلال على صديقك ذهابه للمقهى ، أما أنت يا عزيزي فلا داعي لأن تحذو حذوه .
اجابها :

— نعم ياليزافيا ، لن أحذو حذوه لا لشيء الا اننى اشعر مرارا في مواجهة الربيع بخجل من أن مزاجي يلقي قتاده كله الى الفن وحده ، صدقيني اننى انلتقى أحيانا خطابات من مجهولين مليئة بعبارات النناء

طونو كروجر ١٣٦

على انناجى ، انها من اناس تأثرت قلوبهم بما كتبت وعبرت عن أعجابها بى ، أقرأ هذه الخطابات فيمس قلبى ما تنطق به من ود تلقائى ، ود غزير من فرط انسانيته تم اشعر بالرتاء لما أجده فى هذه الخطابات من حماس غارق فى السذاجة ، نم يحمر وجهى خجلا حين يتمثل فى خاطرى حالهم حين يزول حماسهم ويحل محله برود اذا ما تسنى لهم اللقاء نظرة وراء الستار، ان الأمر الذى سيستعصى عليهم ادراكه بسبب براءة طويتهم هو أن الإبداع فى الأدب أو التمثيل المسرحى أو التلحين هيهات أن يصدر من رجل سوى سليم البنيان والأعصاب ، ولكن هذا كله لا يصمدنى عن تقبل اعجاب هؤلاء الناس اذ أجده يحثنى على الاندفاع فى العمل ، اننى آخذ هذا الاعجاب مأخذ الجد وأقلد كالقرد هيئة عظماء الرجال ومسلكهم ، لا تحاولى مناقشى ياليزافيتا ومجادلة اقوالى ، تقى اننى مريض اكاد أهلك من شدة الضنى بتصويرى لركب الانسانية دون أن يكون لى دور فيه أو نصيب . والسؤال الأخير هو : هل الفنان رجل كبقية الرجال ، دعينى اقترح فأقول لعل الجواب عند النساء . نحن الفنانيين أشبه ما نكون بطاقم المنشدين فى قداس البابوات ، لأجل أن تكون لهم أصوات الملائكة ينبغى أن يكون لهم أصوات النساء فلا هم ذكور ولا هم أناث ..

— ينبغى أن تخجل من نفسك يا طونيو كروجر تعال الآن نشرب الشاي ، ان الماء يكاد يعلى وها هى السجائر امامك هات ما عندك عن شذوذ الفنان عن عامة الناس ولكن بجدر بك حقا أن تخجل من نفسك ولولا ادراكى أنك تهب نفسك بحماس وفخر للرسالة المقدره لك لسمعت منى كلاما آخر .

لونيو كروجر ١٣٧

— لا تحذيني عن الرسالات بالزافيتا ايفانوفنا ،
ليس الأدب رسالة ، انها الأدب لعنة ، أعرفين متى
يبدأ شعور المرء بهذه الحقيقة ؟ في وقت مبكر ، مبكر
الى درجة مفاجئة ، في وقت كان يكون من حقه فيه أن
يظل في وئام وسلام مع خالقه والكون ، يبدأ ادراكه
لهذه الحقيقة حين يبدأ احساسه بأنه منفصل ، في
تعارض عجيب غير مفهوم مع أسوياء الناس ، بينه
وبين الناس هوة تحفرها حساسيته المتهكمة وقدرة
بصيرته على النفاذ والكشف والادراك ، وميله الى
التشكك والمعارضة ، وتزداد هذه الهوة مع الأيام
عمقا واتساعا فاذا به يشعر أنه وحيد ، لا وئام له من
بعد بينه وبين الناس ، ياله من قدر ، هذه هي الكلمة
التي سيهتف بها لسانه لو افترضنا أن قلبه بقى حيا
قادرا ولو قليلا على النضارة والرقّة والعطف حتى
يدرك فجيعته ، ان ادراكه بفجيعته يتوهج لأنه يشعر
كأن يدا خفية دفعت جبهته بخاتم يميزه عن الناس
ويدرك أن هذا التمييز سلحظه كل العيون ، لانقطع
مغالبته ومجاهدته لاحساسه المرضى بذاته . عرفت فيما
مضى ممثلا مسرحيا من النوابغ ، لا تنقطع مغالبته
ومجاهدته لاحساسه المرضى بذاته وشعوره الدائم
بالقلق ، كان اذا لم يجد له دورا على المسرح فلا تكون
هناك شخصية تحيا بفضل تمثيله لها فيحيا هو بها
لشدة تقمصه لها يصبح تمثالا مجسما للجمع بين
عبقرية الفنان وتعاسة الانسان ، فهل هو ممثل نابغة ،
لا يتخذ من الفن مهنة يتعيش منها ، كأى مهنة أخرى؟
بل هو ممثل قد اجتباه الفن وحلت به لعنته ، يستطيع
المرء فرزه من بين جميع الناس ولو لم يكن له افخار
بنفاذ بصيرة أو صدق فراسة ، اذ سيدل عليه ما ينطق

طونو كروجر ١٣٨

به وجهه من شعور بأنه منفصل عن الناس ، له حساب مستقل ، انه غير مقيد بولاء ، بأنه مفتضح ومراقب بسبب شهرته ، نطق وجهه هذا يجمع بين الاستعلاء والارنباك — هذا هو ما ينطق به وجه أحد الأمراء حين يجوس خلال الناس وهو في زى عامة الشعب ، بملابسه مهما كثرت لا تستره باليزافيتا ، فليتخف ولبتكر كما شاء ، فما يكاد ينطق بكلمة أو يلقي نظرة حتى يتبين الجميع انه ليس كبقية الناس ، بل مخلوق من جنس آخر ، جنس عجيب ، مختلف ، متفامر . . وشبيه بهذا الأمير ضابط الجيش أو السفير في السلك الدبلوماسي .

ولكن ما الذى يجعل من الفنان فنانا ؟ .

لا شيء مثل موقف عامة الناس من هذا السؤال يكشف عن نملهم وضيقهم من الاضطراب لأعمال الذهن واجهاده وعن تعلقهم الفطرى بنعمة الراحة وخلو البال ، هؤلاء السادة الكرام حين يمس عمل فنى قلوبهم بقولون بتواضع هذا شيء نعهده نحن منحة علوية ، ويفترضون ببراءة أن الأثر النبيل السامى لا بد أن يتولد من مصدر نبيل سام ، فتهيأت اذن أن يخطر ببالهم وهم يتحدثون عن هذه المنحة العلوية بأنها شيء جدير بأن بنر الريبة فيه ولا يبعث على الاطمئنان له ، وأنه يستند الى أسس نكراء ، هي نذير لا بشير ، وكل الناس تعلم أن الفنان مفرط في رهافة حساسيته وأنه من السهل جرحه ، كما تعلم أن الرجل العادى الواثق بنفسه هو بمنأى عن هانين الصنفين ، صدقيني باليزافيتا ، ان هذا النمط من الناس المنمى لزمره الفنانين انها اكن له في قرارة قلبى عين الاحتقار التى كان يلقاه من اجدادى في

طونيو كروجر ١٣٩

موطنهم على بحر البلطيق كل مهرج سيرك « بهلوان » ولكنه احتقار يعبر عنه بلغة المتقنين لا بلغة الاسواق، انصتى الى ياليزافيتا ، أنتى أعرف صاحب مصرف له غزواته في سوق الأموال ، انه رجل بدأ لون الرماد يتمشى في شعره الأسود ، له موهبة في تأليف القصص وينصرف الى كتابتها في اوقات فراغه ، وبعض قصصه ممتازة ، ولكن رغم سمو موهبته — خذى بالك من كلمة رغم هذه ، فانه لم يسلم من الدناءة ، فقد دخل السجن لجرم كبير ، نعم ، كان في السجن بدء انبهاه وادراكه انه صاحب موهبة وكانت نجاربه في السجن هى المحور الرئيسى الذى ادار حوله قصصه ، وقد يكون من حماقة أن نسارع الى الاستنتاج بأن التعرض للسجن — على أى نحو — شرط لأن يصبح الرجل شاعرا ، ولكن هل من سبيل للحرر من شك يساورنا بأن موهبته الفنية — فى منشئها وصميمها — ليست وليدة فترة مكونة فى السجن بقدر ما هى وليدة النزعات التى أدت به الى دخول السجن ، أفيجتمع فى رجل واحد ان يكون صاحب مصرف ويكون قصيصا ، قد يحدث هذا ولكن حدونه نادر ، ولكن هل رأيت مؤلف قصص هو فى الوقت ذاته صاحب مصرف منزه عن الاجرام ، ممتع باحترام الناس ، ناج من كل شبهة وريبة ؟ هذا مستحيل ، لا وجود لمنل هذا الرجل ، نعم ، أنت تضحكين منى ولكن نقى أن كلامى أقرب الى الجد منه الى الهزل ، فلبس فى الدنيا كلها معضلة معذبة كمعضلة الفنان من حيث كونه فى باطنه مبدعا وكونه فى ظاهره انسانا كبقية الناس ، وبالتالي معضلة ما ببركه الفن على عامة الناس من اثر ، أعنى اشد الأعمال الفنية اتارة للاعجاب والدهشة واصدقتها

طونيو كروجر ١٤٠

تمثيلا لمعنى الفن ، اذن ما اعظمها لهذا السبب —
 خذى مثلا عملا فنيا فيه مجافاة للفطرة السليمة وله
 ظاهر وباطن مختلفان وهو أوبرا تريستان وايزولد
 لفاجنر وارقى اثره على مخلوق فى نضارة القلب
 وازدهار الصحة وسلامة الفطرة واستقامة الأحاسيس
 ستريته يتسامى ويزداد قوة ويملىء بالحماس المتقد
 النبيل ، وقد يتحرك نفسه هو أيضا فيختبر قدرته
 على الابداع مرحى بك أيها الغر المبتدىء ! هيهات
 أن يتصور أننا نحن الفنانين تختلف دخيلتنا كل الاختلاف
 عن الصورة التى تخلفت لنا عنده ، بفضل اتقاد قلبه
 وصدق حماسه ، وقد رأيت كيف يحاط الفنان
 بالترحيب والاحترام من الشباب والنساء .. أما أنا
 فأعلم الحقيقة ، حقيقة الابداع الفنى من حيث منابعه
 ومظاهره وشروطه ، كم راقبت هؤلاء الفنانين مرارا
 وتكرارا ..

— أهذه هى كل خبرتك يا طونيو كروجر ، أهى
 مقتصرة على مراقبتك لهم .. للغر .. أم لها مصدر
 آخر ..

لم يرد عليها بل تطب حاجبيه واخذ يصفر بشفتيه .
 — ناولنى قدحك يا طونيو فالشأى به خفيف وخذ
 سيجارة أخرى ، انت تعلم حق العلم أنك تأخذ الأمور
 على غير ما ينبغى بالضرورة أن تؤخذ به .
 — هذه هى عين اجابة هوراشيو يا عزيزتى
 ليزافينا ، مواجهة الأشياء كما تريدن ، مواجهتها عن
 قرب شديد ، أليس كذلك ؟

— ازعم يا طونيو كروجر أننا نستطيع أيضا
 مواجهتها عن قرب من جانب آخر وتحت ضوء مختلف،

طونيو كروج ١٤١

ما أنا الا امرأة بسيطة ، ترسم لوحات ، ماذا أردت أن اناقضك وأن أبريء موهبتك من اتهامك لها ولو بمرافعة متواضعة فلن يتسنى لى أن أقول شيئاً جديداً ، غاية الأمر سأذكرك بأمر تعلمها أنت حق العلم عن الأدب كيف يمنح الطهر والشفاء ، عن جموح العواطف كيف يلجمه استنارة البصيرة والافصح ، عن الأدب الذى يقود الى الفهم ، الى التسامح ، الى الحب ، عن سحر الكلمة المانحة للنجاة والخلص ، عن فن الأدب باعتباره أنبل مظهر للعقل وأشرفه ، فالشاعر هو الإنسان الكامل ، هو القديس ، أهذا نظر للأشياء لا يشفى غليلك من التعجب لها ؟

— لك الحق أن يكون هذا هو كلامك باليزافيتا ، اعتماداً على اعمال الشعراء فى الأدب الروسى البديع الذى يفتخر به وطنك والذى يتمثل فيه أتم نمثيل قداسة الأدب التى تتحدثين عنها ، ولكن لا تحسبى أن اعتراضك ليست فى بالى ، فانها مما يشغل ذهنى اليوم ، انظرى الى ، هل تطالعك منى مظاهر بهجة مفرطة ، اننى أتبدد كأنها شخت قليلاً ، ولحقتى الجفاف وركبى التعب ، دعينا من هذا ولنعد الى حكاية العلم والادراك نتمثل رجلاً تهديه فطرته السلمية الى الإيمان بالخير ، انه وديع حسن النية يتخاذل للعواطف قليلاً ، مثل هذا الرجل اذا ملك بصيرة كاشفة للنفوس فانها خليقة بأن تستهلكه وتهدمه هدماً كاملاً ، فالمسألة هى الا ندع أحزان العالم تضعضعنا ، وأن نلحظ ونرقب ونسجل فى ذهننا وننتفع بالجديد من تجاربنا حتى المفجعة منها ، ثم يكون لنا فى الوقت ذاته ادراك بأننا اسمى معنويًا من هذه اللعبة المخترعة التى تسمى بالوجود أو بالحياة ، نعم ، حقًا تمر بنا أحيانًا

طونيو كروجر ١٤٢

لحظات نشعر فيها أن هذا الوجود يستولى علينا ويغرقنا في أحضانه بالرغم من احساسنا بالجدل لقدرتنا على التعبير . هناك من يقول الفهم يتبعه التسامح ، هل هذا صحيح ؟ لست أدري ، أن نفوسنا تعرف أحيانا شعورا أسمه التقرز من المعرفة ، هذا الشعور الذى يكفى معه للرجل أن تكشف بصيرته خلسة باطن أمر من الأمور لكى ينقرز منه كل التقرز . غيذا غيم هينات أن يتبعه تسامح ، أئننى استشهد بياملت ، أنه خير مثال للأديب ، كان يعلم حقيقة نفسه ، وأى انسان هو ، وأنه مقدر عليه أن يدرك أشياء لا استعداد ولا قدرة له على ادراكها ، حاله حال انسان يرى الأشياء بوضوح من خلال غيام الدموع التى ما تزال عالقة بأجفانه ، يدرك ويلحظ ويرقب وتكرهه نفسه أن يسجل فى ذهنه وهو يبشم لكى يخترن فى ذاكرته كل ما يعلق به بصره حتى فى لحظة تنبض يده على يد الحبيب والنقاء شفثيه بشفثيه ، وانمحاء بصره من شدة انقاد عاطفته ، هذا شىء يشع ياليزاغينا ، شىء وضع ، يتقرز له النفس ، ولكن ما جدوى التورة عليه ، وهناك جانب آخر سقيم لهذه المسألة ، هو مقابلة كل الحقائق بشعور تصنعه اللامبالاة وليدة النخمة ، والضجر المصحوب بالتهكم والاستخفاف عند الشيع من التجارب ، أتم مثل على الميل الى الصمت واختفاء المتعة فى الحديث تجدينه فى جلسة حلقة من الأنكياء طاف ادراكهم بكل الأشياء فكل خبر عندهم قديم مستهلك وباعث على الملل اذا عبر ليم انسان عن حقيقة تصيدها واملكها بعد أن كانت هاربة منه فسر بتوفيقه سرورا يكاد أن يكون صبيانيا لم يكن تعليقهم على اكتشافه الهتذل عندهم

طونيو كروجر ١٤٣

الا نطقهم له بكلمة واحدة هي (طبعا ، طبعا) نعم
 ياليزافينا ، ان الأدب يورث الأعباء ، نعم ، قد يحدث
 لانسان — صدقيني — بدافع من ميله الى التشكك
 والارتياب واستصوابه الا يجهر برأيه أن يسلكه
 الناس بين الحمقى والأغبياء على حين أن الدافع له
 هو الكبرياء وعدم الايمان بجدوى الشجاعة في معترك
 الآراء ، هذا هو ما أقوله عن العلم والادراك ، أما عن
 التعبير فانه عندي لا يتمثل فيه النقيس عن النفس
 بقدر ما يتمثل فيه ترطيب العواطف المتقدة حتى تبرد
 بعد توهجها ، حقا ان هذا الرأي الأحق السطحي
 القائل بأن التعبير وسيلة للتحرر من ضغط العواطف
 هو محض ادعاء تنور له النفس وتفسر فيه حل
 للمشكلة تغلب عليه برودة القبر لا دفء الحياة كأنى
 أقول لن هصرت العواطف قلبه وهاجت أشجانه
 وانفعالاته لتجربه مرت به الا تبتئس ولا نياس ، الحل
 سهل ، ما عليك الا أن تقصد أدبيا فانه سيحط عنك
 أحمالك في غمضة عين ، فهو سيحلل شعور قلبك
 ويكتشف له نمطا ويجعل له اسما ولسانا يعبر به
 عن ذاته فاذا بك قد شفيت من كل لواعج قلبك
 وأصبحت بقية عمرك نأخذها بلا مبالاة ، واعلم أن هذا
 الأديب لن يسألك عن خدماته جزاء ولا شكورا فتعود
 الى دارك وقد زال ارهاقك ، رطب القلب ، مستنير
 البصيرة تسأل نفسك ما هذا الذى كان منذ لحظة
 يعتلج في قلبى فأجد له المسا لا يخلو من لذه كبيرة ،
 يا للعجب لصاحبنا هذا حين نجده رغم ذلك يصر من
 كل بد على الدفاع عن الأديب ، هذا اللاعبان المغرور
 الذى قد قلبه من الثلج . ان ايمان هذا الأديب هو أن
 التعبير عن المشكلة أنها هو فض وحل لها ، فاذا

طونيو كروجر ١٤٤

قيض للكون كله صيغة تعبر عنه فار الكون كله سيجد فيها فضا وحلا للغزه ويتحرر ويفقد الهيئة التي وجد عليها ، نعم ، هو هذا ، مع انى لست فوضويا .
قالت له ليزافيتا :

— كلا ، لست فوضويا ..

وكانت تمسك وملعقة الشاي قريبة من فمها وبقيت برهة جامدة على هذا الوضع ، قال لها :

— هيا هيا ياليزافيتا ، اعلمى اننى لست فوضويا فيما له مساس بالعواطف الحية ، واقول لك ان الأديب لا يدرك أن الحياة قادرة على متابعة سيرها حتى ولو بعد أن تبوح بالتعبير عنها ، ومهما وجدت في الأدب تطهيرا لها فانها لا تنقطع عن الاتم — إذ أن كل فعل انما هو انم في نظر العقل .. هذا ختام كلامي ياليزافيتا والآن انصنى لى ، اننى أحب الحياة ، هذا اعتراف اودعه عندك لكى تحتفظى به ، لم أنطق به لأحد قبلك ، يقولون عنى ويكتبون وينشرون اننى اكره الحياة ، إذ اننى أنهيبها وأخشأها أو اننى أحنقرها ، أو اننى أمقتها ، وقد تلقيت كل هذه الأحكام بسرور داعب غرورى ، ولكنى ما أشد بعدها عن الصواب ، فانى أحب الحياة ، أراك تبسمين ياليزافيتا وأعلم السبب ، ولكنى أناشذك إلا نأخذى ما قلته لك الآن أخذك لصفحة من كتاب لأديب لا يعنى إلا بمطالب التعبير الفنى ، اياك أن يرد ببالك سيزار بورجيا وكل شاعر ماجن جعل منه حامل اللواء في كتيبة عشاق الحياة ، فانى أحنقر سيزار بورجيا هذا ، لا قيمة له عندى ، إذ لا أفهم اطلاقا كيف يصح اتخاذ الشاذ والشيطانى مثلا أعلى .

طونيو كروجر ١٤٥

كلا ان الحياة — هذا التقيض الأبدى لمنطق العقل
والفن — لا نبدي لنا للدلالة عليها وجهها يوحى لنا
بصور مهولة عن أمجاد ملطخة بالدماء وعن جمال
وحشى فنحن — أعنى هؤلاء الذبن لهم حساب خاص
ومختلف عن حساب غيرهم — لا نتصور الحياة أن
تكون مثلنا مستعلية على القياس والذي ينحصر فيه
تطلعات أشد أمنا انما هي الحياة العادية المألوفة
الجديرة بالاحترام والاعجاب — الحياة التي بمنحها
ابتذالها كل سحرها ، هيهات يا عزيزتى أن يكون
فنانا هذا الرجل الذي لا ننجذب أعز أحلامه وأشدها
استيلاء على قلبه الا لعالم التائق المرف والشذوذ
النزق ، والجموح الشيطاني ، هذا العالم الذي بجهل
معنى امتلاء النفس سرا لعنف الطموح الى مباهج
الحياة العادية المألوفة . من لى بانسان اتخذه صديقا ،
انسان صديق ، تقى ، ان فوزى بصديق من البشر
يملأنى بالسرور والفخر ، ولكنى الى اليوم لم أنظر
بصديق الا من بين أناس لهم طبع الشباطين أو
الوحوش ، طبع غير جذاب ، أناس اذا خالطتهم
حسبتى أخالط أشباحا عقد الإدراك السننتهم فهم
يدورون بها فى أشداقهم — أعنى بهم الأديباء .
يحدث لى أحيانا أن أعتلى منصة وأجندنى فى روات
أواجه أناسا أتوا للاستماع لى ، أقول لك يحدث لى
حقيقة وأنا أنظر الى أفراد هذا الجمهور من حولى أن
أنشغل بمراقبة نفسى وأفاجئها بنظرة فاذا هى تكشف
لى أنها منشفلة سرا بالتشوف للعتور بين المستمعين
على هذا الذى يكون قد جاء من أجل شخصى أنا ،
ذاتى أنا ، هذا الذى بquam بيننا قنطرة يصلنى عبرها
نصفيقة لى ورضاؤه عنى وشكره لى ، هذا الذى

طونيو كروجر ١٤٦

يجمعنى به الفن فى رباط مثالى ، غير أنى لا أجد من أبحث عنه ، بل أجد القطيع ، عين المجتمع الذى أعده انه عين الحشد الذى كان يضم أوائل المؤمنين ، أناس لهم أرواح راقبة وأجساد جملة تنقصها الرشاقة ، هم وحدهم الذين يتعثرون ويسقطون فى حلبة الرقص ، انهم من هذا الصنف من الناس ، الذين يرون فى الشعر انتقاما من الحياة ، ولكنه انتقام برفق ، لا يحدث أبدا أن تجدى فى هذا الحشد سوى نفر من الغلبة حملة الاثراق والآلام ، لا يأتى أبدا باليزاميتا واحد من الآخرين ، هؤلاء الذين لهم عيون زرق ممن لأنسان لهم بهذه المهوم كلها .

ثم بعد هذا كله أفلا يكون من الخطل وفساد المنطق الذى يؤسف له أن نريد للأمور أن تصبح على غير هذه الحال ، فمن الحماسة كل الحماسة أن تعشق الحياة ثم تحشد كل قواك لكى تجذبها ناحيتك ، ناحية الحس المهذب الرفه ، والكآبة واستعلاء الأدب ، ان مملكة الأدب تزداد حينئذ اتساعا فى دنيانا ومملكة الطبع السليم والبراءه تزداد تقلصا ، ومما يتبقى لنا منها ينبغى أن نحفظ به ونحرص عليه ، والأنا نحث على قراءه الشعر أناسا بفضلون قراءة وصف التماسط صور الخيل وهى منطلقة فى عدوها . فهل هناك فى نهاية الأمر منظر أباس من منظر الحياة وقد ضلها الفن ، ونحن الفنانين لنا احتقار شديد لمن يلام بمعبد الفن المام الزائر اللاهى لا المام القاطن المهوم ، أعنى به هذا الرجل الذى يحيا حياته كبقية الناس تم يظن أنه قادر أيضا أن يكون فنانا اذا ما واته الفرصة ، أنتى أتحدث عن تجربة ذاتيه ، صدقيني لك أن مصورى حالى حين يضمنى أحيانا جمع من أناس

كرام مهذبين ، نأكل ونشرب ونترثر ، بسود بيننا
 الفاهم على أمثل وجه وسعدنى أن أجدنى لفترة
 مندمجا بأناس لهم انكشاف وانبساط نفس كأننى واحد
 منهم ، وفجأة - وأنا أروى لك عن خبرة ، أؤكد لك .
 فينهض من بينهم شباب وسيم ، نعرف أنه ضابط
 فى الجيش ، لا يخطر ببالى أن يصدر منه فعل لابناسب
 زى السهرة الذى يرنديه من يغشى الحفلات طلبا
 للمنعة واللهو ، واذا به سنأذنا فى عبارة مقتضبة أن
 يقرأ علينا شعرا من نظمه فنأذن له ونحن نضحك
 ضحك المخرجين ، فاذا به بخرج ورقة كان يخفيها
 طول الوقت فى جيبيه ويتلو علينا كلاما نظمه عن
 الموسيقى والشعر ، فيه تعبير مباشر عن احساسه
 فهو من تم تعبير لا قيمة له ، تأملى هذا اذن ، ضابط
 وشاعر ورجل سالونات ! ما حاجته الى الابتلاء بفن
 الشعر ؟ وكانت النتيجة - كما هو المتوقع - أن
 استمع له الجميع بوجوه تنطق بالعناء فى صمت ،
 تصدر منهم أحيانا نامة تعبر عن استحسان مكذوب .
 ويسود الجميع جو كئيف من الحرج ، اذل ظاهرة من
 معانى هذا المشهد التى ينتبه لها ادراكى هو وشعورى
 بأننى أتحمّل قسطا من جريرة هذا الصدع الذى احدنه
 هذا الضابط فى زمرتنا ، بل صدقنى اذا قلت لك أننى
 أرى رأى العين نظرات بعضهم تتجه نحوى ، نطق
 بالتهكم والاستبواخ ، أفلست ملتائا بين الفن الذى
 يخطب فيه هذا الضابط .

أما الظاهرة الثانية فالبك صورتها ، هذا الضابط
 الشاب الذى كنت منذ لحظة أكن لشخصه وحسن
 أدبه احتراما صادقا أخذ فجأة يهبط فى نظرى درجة
 بعد درجة ، فيتملكنى شعور بالعطف عليه والرناء له

طونيو كروجر ١٤٨

فأتقدم اليه مع نفر من الحاضرين واستمد الشجاعة
بدافع من كرم أخلاقهم وأقول له تهانى الحارة ياكابتن!
أنت حقاً موهوب ، وشعرك ظريف ، لا ينقصنى إلا أن
أطبطن أيضاً على كتفه ، ولكن مثل هذا العطف
والتلف لا يليق بضابط أن يتطلبه من الناس ، الذنب
ذنبه ، ها هو ذا بعد القاء شعره جامد في وقفته ،
يكفر عن خطيئته بهذا الاضطراب الذى يجاله ، خطيئة
اعتقاده بأنه من المستطاع قطف ورقة واحدة من
شجر الغار رمز انتصار الفن دون أن يكون الثمن هو
وداع الحياة الطمئنة .

كلا ، اننى أفضل في هذا المجال قرينى القصصى
صاحب المصرف المحترم ، ولكن ياليزانيتا هل تتهمينى
بأننى منطلق في ثرثرة لا ند لى فيها سوى هاملت ..
— هل انتهيت يا طونيو كروجر ؟

— كلا ، ولكنى سأطبق فمى .
— وأنا أيضاً مستكفية بهذا ، وهل تنتظر منى
ردا .. ؟

— وهل عندك رد ؟
— نعم ، أعتقد ذلك ، وقد أحسنت الانصات اليك
يا طونيو من البداية للنهاية ، وأريد أن أوافيك برد
يناسب كل ما قلته لى ، يتمثل فيه حل المشاكل التى
تضنيك وتعذبك ، ولكن كلا ، لا رد عندى ، فسبب
مشاكلك أنك — كما أنت مائل أمامى — لست إلا
واحداً من أبناء الطبقة البورجوازية ، لا أكثر ولا أقل .
فسألها وهو متضعض قليلاً .

— أهذا ظنك بى ؟
— نحسبنى قسوت عليك ، ليس كذلك ؟ ولا مفر

طونيو كروجر ١٤٩

لك من الاعتقاد بأن كلامي يبدو لك قاسيا ، لذلك أريد
أن أخفف قليلا من وقع حكمي عليك ، أنني قادرة على
ذلك اذ سأظل رغم هذا الخفيف أمينة لك وصادقة ،
ما أنت الا واحد من أبناء الطبقة البورجوازية ، ضل
في طريق غير طريقه من هو طونيو كروجر ، ما هو
الا بورجوازي طائس سهمه .
ساد الصمت ثم نهض بعزم وتناول قبعته وعصاه
وقال لها :

— أشكرك يا ليزافيتا ، أستطيع الآن أن أعود الى
داري وأنا هادئ النفس فان ادراكي لشكلكي قد
فضها ..

الفصل الخامس

قال طونيو كروجر لصديقته ليزافيتا ايفانونا وقد اقترب الخريف :

— سأسافر با ليزافيتا ، يلزمنى تبديل الهواء ، وأن أعيش فى الخلاء .

— ماذا بك يا صاحبى ، تريد الرحلة مرة أخرى الى ايطاليا .

— بالله دعينى من سيرة ايطاليا ، فقد مللتها حتى أصبحت أزديريها ، لقد مضى منذ وقت طويل هذا العهد الذى كنت أعدها فيه وطنى ، لأنها موطن الفن ، اليس هذا هو ما يقال ، السماء مخمل أزرق ، والنبىذ مكنال ، واللذة الحسية ودود ، كل هذا أصبح لا معنى له عندى ، نفضت منه اليبدين ، كل هذه الحلوة العسلية تصيب أعصابى بالتوتر ، أصبحت لا أطيق مخالطة من أجده فى ايطاليا من أناس لهم حدة فظلمة فى الطبع والحركة ، عبونهم سود كعيون الحيوان ، ان أبناء الرومان هؤلاء لا يلمع فى نظرتهم معبر روحانى ، كلا ، سأسافر فى رحلة قصيرة الى الدانمرك .

— الدانمرك ؟

— نعم ، أنا واثق بأننى سأفوز بمتع كنسيرة من رحلتى للدانمرك . لم يقدر لى أن أزورها مع انى عشت كل صباى قريبا من حدودنا معها ، ومع ذلك

طونيو كروجر ١٥١

لم ينقطع حبى لها وتأملى لصورتها من بعيد ، ان هذا السحر الذى أجده فى نفسى لبلاد الشمال لأبد موروث عن أبى ، لأن أمى كانت أكر ميلا الى هذه الحلاوه العسلية الايطالية التى وصفها لك وان كانت كل المتع عند أمى سواء ، أقرأى مؤلفات الدانمرك ، انها أدب عميق ، صان ، تثرية روح الدعابة ، لا أعلى عليه أدبا آخر ، اننى أحب هذا الأدب الدانمركى وانظرى أيضا الى طعام بلاد الشمال انه لا يفوقه طعام آخر ، لا كفاء له الا من يملأ رئنيه هواء البحر ، ولست أدرى هل أنا كفاء له أيضا ، ذلك اننى خبرته قليلا بسبب نشأتى اذ كنا فى أسرتنا نأكل اكل بلاد الشمال ، حتى الأسماء الشائعة فيها يجدينها شائعة أيضا فى موطنى فى الشمال ، مثلا اسم انجبورج ، الا تسمعين فى نطقه عزفا على أونار الهارب بنغمة شاعرية صافية ، ثم لاننس البحر هناك ، بحر البلطيق ، نعم ، سأسافر الى الدانمرك يالبزافيتا لأننى أشتاق الى رؤية بحر البلطيق وأن يتكرر اسمه على مسمى ، أهل اسكندنافيا ، أريد أن أقرأ أدبهم فى الجو الذى نبت فيه وأريد أيضا أن أظأ بقدمى شرفة قصر كرونبرج حيث ظهر الشبح لهاملت فأسكن الحزن وطعم الموت فى قلب هذا الشاب النبيل البائس .

— وكيف سيكون وصولك الى الدانمرك ، أن جاز لى أن أسالك ؟

أجابها وهو يهز كتفيه وقد علت وجهه حمرة خفيفة:
— بالطريق المعتاد ، وسأبدأ من حيث أن ينبغى أن تبدأ رحلتى منذ ثلاث عشرة سنة ، ليس هذا قد يبدو مضحكا ..

طونيو كروجر ١٥٢

فابتسمت وقالت له :
— هذا ما كنت أريد أن أسمعك منك ، فسافر انن
في رعاية الله ، ولا ننس أن تكذب لى ، أنى سأنظر
منك خطابات تروى لى فيها تجاربك اليومية وكيف
معيشتك فى الدانمرك .

الفصل السادس

وبدا طونيو كروجر رحلته الى الشمال ، أنه حريص على أن يستوفي أسباب راحتته في سفره اذ كان من عادته أن يقول : حين يكون للمرء من داخله حياة يشقى بعذابها شقاء لا يعرفه غيره فمن حقه أن يلتمس من الحياة من حوله نصيبا من الراحة ، لا ضمان عنده ان سافر حقا الا بعد أن تمنلىء عنائه من أبراج المدينة ذات الأسوار التي ودعها ذات مساء لراها مرة أخرى ماثلة أمامه تحت ضوء المغيب في لون الرماد . فكانت له بمدنيتها هذه المامة قصرة وعجبية .

وصل عصر يوم وقد شجبت الشمس وهى تنحدر الى المغيب ، ودخل القطار المحطة الصغيرة ، تفوح فيها رائحة الدخان ، ما أعجب الفه لها ، سحب البخار تحت السقف بفتحاه المغطاة بزجاج قذر تتفرق مزقا تتسكع يمئة وسره كالعهد بها يوم رحل طونيو كروجر من هذه المحطة ذاتها ، ولا وديعة في قلبه سوى شعور بالهكم والسخرية . انشغل بحقائبه ثم أمر بارسالها الى الفندق وغادر المحطة .

ها هى بعينها وذاتها عربة الحنطور أم جوادين ، نسيحة ، عالية السقف ، تقف صفوف منها أمام المحطة ، كل الذى طرا هو أن طونيو أخذ يتفحص هذه العربات بنظرة مسنفةمة ، تفحص بها أيضا كل

طونيو كروجر ١٥٤

شئ صادفه ، قعم المنازل المثلثة الأضلاع ، وخيل اليه أنها تلقى عليه السلام ، يتفحص بها المارة : أناس شقر لهم بدانة ومشية بليدة ونطق للالفاظ خطف ولكن في وضوح ، غلبته ضحكة متوترة تشبه على نحو غامض نشيج رجل يتكتم البكاء ، وأخذ يمشى متمهلا ، يلفح الريح البارد وجهه ، وعبر القنطرة المقامة فوق النهر ، تزينها تمانيل لشخوص أسطورية بم سار أيضا بحذاء رصيف الميناء .

يا الهى ! كم هى ضيقة وملتوية كل المسالك في هذه المدينة ، أفمئذ الأزل تصاعد هذه المنازل المحنية للسقوف الى قمة المدينة بجهد لا يخلو من خيلاء ، مداخن السفن وقلوعها يؤرجحها الرياح برفق على سطح النهر الشاحب تحت ضوء المغيب ، أفى نيته أن يصعد مع هذا الشارع الى منعطف يقع عنده المنزل الذى شغل أحلامه ، كلا ، ليترك ذلك الى غد ، أما الآن فهو محتاج الى النوم ، ثقلت رأسه من تعب السفر فلا تدور بها الا خواطر بليدة مغلفة بالضباب .

كان في الماضى — خلال ثلاث عشرة سنة . يحلم أحيانا أنه عاد مرة أخرى الى أسرته ، الى المنزل الفسيح الذى ترن فيه الأصوات ، المطلق على شارع منحدر ، يحلم أيضا أن أباه كان من جديد بالدار ، وأنه ينهال عليه بالتقرب الشديد بسبب حياة الفساد التى يعيشها ، وأنه كان يجد هذا التقريع مهما تكرر أمرا طبيعيا ، ان اللحظة الحاضرة عنده ترفض كل الرفض أن سيمز بفكرة اختلاطها النوم بلحظات تلك الأحلام الخادعة التى لا يتأتى حل مغاليقها ، والتى يتساءل فيها النائم هل الذى يراه وهم أم حقيقة ، وينساق الى القول بأنه حقيقة وايس بوهم ، بم ينتهى

طونيو كروجر ١٥٥

على الحالين بفتح عينيه وهو مستيقظ .
تابع سيره في شوارع نكاد تخلو من الناس ولكن
تمتلئ بتيارات الرياح ، فيصدها عنه باحناء رأسه ،
واتجه وهو مثقل بالنعاس ، فكأنه بمشى وهو نائم ،
نحو الفندق ، أرقى فنادق المدينة ، حيث اعتزم قضاء
ليلته .

كان يسير أمامه رجل مقوس الساقين يتمايل على
الجنبين في مشية بحارة السفن وهو يحمل عصي طويلة
تنتهي بجذوة يشعل بها مصابيح الغاز في الطرقات . .
ما الذى دهاه ، ما الذى يعتلج في قلبه ، ما هذه النار
التي يتكوم عليها رماد تعبها وارهاقه فلا يتعالى منها
لهيب ساطع وإنما تظل تتقد في باطنها بعبوس كأنه اتقاد
الجحيم ، هس هس ، لا تفتح فمك ، لا تنطق بكلمة ،
الجم لسانك ، كان بوده أن يسير هكذا طويلا في وداعة
ضوء الشمس الغاربة عبر الشوارع المألوفة له ، ولكنها
أطبقت عليه بضيقها وتشابها فما لبثت خطواته أن
ساقته الى فندقه .

مصابيح الغاز في قمة المدينة أضيئت لتوها ، وهذا
هو فندقه ، تعرف على تمثالى الأسدين الرابضين على
جانبي مدخل الفندق ، بقيت صورتها في ذهنه ، كان
يخاف منها وهو صبي ، وجددهما لا يزال كل منهما
مصبوبا خشمه نحو الآخر ، كأنها يريد أن يعطس ولكن
ما بال حجمها قد تضاعل كثيرا ، ومر طونيو كروجر
بينهما ليدخل الفندق .

ولأنه وصل الى الفندق سعيا على قدميه دون أن
يترجل عن عربة شأن سادة الناس فقد كان استقباله
غير محاط بمراسم الاهتمام التي يحظى بها زبائن هذا
الفندق .

طونيو كروجر ١٥٦

استقبله البواب ورجل آخر مكلف بالحفاوة بالقادمين ، يرتدى سترة سوداء ولا ينفك يبنصر في كل يد يدفع عن معصمها كم القميص لكي يدخل الى ذراع سترته ، القيا عليه نظرة متفحصة من قمة رأسه الى أخمص قدميه ناطقة ببذل جهد لتخمين مقامه ومركزه في المجتمع ، وتقدير مدى الاحترام الذي ينبغي له أن يلقاه في الفندق ، وارتدت اليهما هذه النظرة عاجزة عن التخمين ، اذن سيكون استقباله بقدر معتدل من الادب والحفاوة وجاء العامل المكلف بخدمة النزلاء وتقديم ما يطلبون من الخمر وهو رجل تبدو عليه الوداعة ، انسدل شعر رأسه فغطى فؤديه في لون يجمع بين البياض والاصفرار ، يرتدى سترة تلمع من فرط القدم وخفا لا يسمع له وقع على الأرض ، محلى بأنشودة عريضة وقاد طونيو الى الطابق الثاني وأدخله حجرة لها أثاث حسن ، من طراز عتيق .

من وراء النافذة وتحت ضوء يخافت به المغيب يمتد منظر خلايب ، يذكرك بالقرون الوسطى ، أفنية وسقوف محنية وكنائس لها عمارة عجيبة ، يقع الفندق في جوارها ، ظل طونيو كروجر واقفا برهه أمام النافذة ثم انثنى فجلس على الأريكة الفسيحة ، عاقدا ذراعيه على صدره ، مقطبا حاجبيه ثم شرع يطلق صفيرا خفيفا من بين شفثيه . جاعوا له بمصباح وأحضروا له حقايبه ووضع العامل الوديع بحركة لا تتم عن الاهتمام فوق منضدة سجل الفندق الذي تقيد به أسماء الواقدين عليه ، انحنى عليه طونيو كروجر ومال برأسه الى جنب وخط به كتابة يقارب شكلها شكل اسمه وصنعتة وموطنه ، ثم أمر بأن يعد له طعامه ، وبقي وهو جالس في ركن الأريكة يلقي نظرة تائهة في الفضاء ، وجرى

طونيو كروجر ١٥٧

له بالطعام ووضع أمامه فمكث زمنا طويلا دون أن يمسه ثم تناول بعض لقيمات ، ثم ظل قرابة ساعة يتمشى جيئةً وزهابا في الحجرة ، يتوقف أحيانا ويغمض عينيه ، ثم خلع ثيابه ببطء ورقد في فراشه . نام طويلا ، تطوف به أحلام مخلطة ملأى بالحسرات والأشواق المبهمة .

استيقظ فرأى حجرته يغمرها النور ، فوجيء بمنامه هذا فأسرع يتذكر أين هو ، ثم نهض ليزيح سنار النافذة ، الصيف يولى فالسما في زرقة بدأت تشحب ، تعبر بها قطع رقيقة من السحاب تمزقها الرياح ولكن ضوء الشمس كان يغمر المدينة التي كان بها مولده ، استعد للخروج فبذل في العناية بمظهره صبورا لا يبذله عادة ، واتقن بكل جهده استنمامه وحلاقه فتنه ، فكانت له جلوة تعمدها كأنما اعتزم أن يزور أناسا في قمة الرقى ، والتمسك بقواعد السلوك ، يريد أن يروا فيه أحسن مثال على الأناقة الكاملة ، وظل وهو يرندى ملابسه ينصت الى دقات قلبه الوجمل .

ضوء النهار خارج الفندق ، ما أقوى سطوعه ، كان خليقا بأن يشعر بشيء من الراحة والأطمئنان لو أن الضوء كان كما بالأمس ضوء المغيب الخافت الذي يسدل العتمة على الشوارع ، أما اليوم فلا مناص من أن ينكشف لأعين المارة جميعا ، هل سيقابل يا نرى بعض معارفه فيستوقفونه ويلاحقونه بأسئلة يضطر الى الاجابة عليها : كيف قضى ثلاث عشره سنة بعيدا عنهم ، ولكن لا ، والحمد لله ، لم يعرفه أحد من المارة ، حتى الذين يعرفونه لن يتعرفوا عليه حين برونه ، حقا أنه خلال هذه الغيبة الطويلة قد تغير شكله ، وكان اذا

طونبو كروجز 108

تأمل صورته في المرآة ، بشعر أنه يتخفى بأمان وراء
قناع ، هو وجهه الذي عركته الأيام قبل الأوان .
طلب فطوره وبعد أن تناوله نزل ومر نحت نظرة
تقيس قدره يصوبها له البواب والرجل المهيب لأبس
السواد واجناز الدهليز ومرق بين الأسدين وبدأ يتكشف
للهواء الطلق .

الى أين يذهب ؟ لا يدري ، حاله اليوم مثل حاله
بالأمس ، يعجب بما يحبط به من مظاهر الاصلالة العتيقة
والألفة المنصلة منذ ماضٍ سحيق ، البادية على السقوف
المحنية والأبراج والبواكى والنافورات . لم يكد يشعر
مرة أخرى بطس الريح لوجهه بقوة سائقا اليه من بعيد
أحلاما يعطر وديع وحريف معا ، لم يكد يشعر بهذا
كله متى ارتبت ستارة كأنها نسجها من الضباب فوق
قلبه وغلفت أوتاره ، ارتخت عضلات وجهه وهدأت
نظرته وأخذ يوجه الى الناس والأشياء نظرة أصبحت
فجأة باردة الى أين هو ذاهب ؟ يبدو له أن هناك علاقة
بين الاتجاه الذي يقصده وتلك الأحلام الحزينة المليئة
بالحسرات التي طافت به في ليلته ، أنه متجه نحو
السوق ، مارا تحت بواكى دار البلدية ، حيث أن
الجزارين يضعون في الموازين ذبائحهم بأيدٍ ملطخة
بالدماء ، حتى وصل الى السوق ، تتوسطه النافورة
العالية المدبة ، من الطراز القوطى ، هناك توقف أمام
منزل بسيط، غير عريض بحيه، هو ومنازل كثيرة في المدينة
شبه واحد ، له أيضا سقف منحن ، وبقي واقفا أمامه
مستغرقا في تأمله حتى نسي نفسه ، قرأ الاسم المكتوب
فوق الباب وجعل نظرته نعلق قليلا بكل نافذة ثم استدار
بيبض لينصرف .

الى أين هو ذاهب ؟ الى بيته ، بيت أسرته ، ولكنه

طونيو كروجر ١٥٦

سلك اليه طريقا ملفلنا ، امتد الى نزهة خارج أسوار المدينة ، فلا يزال الوقت مسعا أمامه ، مر بالأسوار عند الطاحونة وعند حى هولثيين وهو يكبس قبعته بقوة فوق رأسه لئلا يطير من دفع رياح هوج ، تعلق منها لأوراق الشجر خشخشة وصرير ، ثم كف عن النزهة خارج الأسوار حين اقترب من محطة السكة الحديدية ، شاهد قطارا تتوالى نفخانه وهو يسرع في سيره ، تسلى بعد عرباته ومتابعة نظرنه للرجل الجالس في مؤخرة السبنسة ولكنه حين بلغ ميدان الزيزفون توقف عند إحدى القبلات الجميلة القائمة به وظل برهة طويلة يرقب الحديقة والنوافذ ثم طأطأ هواه فأقبل يحرك باب الحديقة يمينا ويسارا حتى أرفع صريره وبعد ذلك تأمل لحظة يده التي علق بها مسحة من الصدا ، ثم انصرف وابتعد ومر من باب المدينة العتيق القصير الارتفاع وسار حذاء رصيف الميناء ، ثم شق صعودا من الميناء هذا الطريق الوعر حتى بلغ منزل أسرته . . لا يزال مزورا بكبرياء عن المنازل المجاورة وسطحه يعلو أسطحها ، لونه أغير ومظهره ناطق بالجد كالعهد به منذ ثلاثة قرون ، وقرأ طونيو كروجر عبارة الدعاء المليء بالوقار والتقوى المنقوش بأحرف منطمسة أعلى الباب ، وعمد الى جذب شهيق مديد ، ثم دخل الى الدار ، قلبه يدق بوجل ، خشية أن ينفتح أحد الأبواب فى الطابق الأرضى ويخرج منه أبوه مرتديا ثيابه التى يذهب بها الى مكتبه ، وأضعا قلمه فوق أنفه ، سيتصدى له هذا الأب ويسأله بقسوة عن سبب فساد حياته ، من الطبيعى عنده أن يسمع منه هذا التقرع ، ولكنه مر أمام الأبواب دون أن يعترضه أحد ، الباب المزدوج المؤدى الى الطابق الأعلى لم يكن مغلقا بالضبة والمفتاح ، بل كان مدودا ،

طونيو كروجر ١٦٠

وبدا له أن ترك الباب هكذا اهمال منتقد ، وان خيل له أيضا أنه هو نفسه أصبح لعبة يلهو بها أحد الأحلام العابثة التي تبدو فيها الحواجز كأنها ننهدم أمامك من تلقاء ذاتها فتسير في طريقك بلا عائق بفضل حظ مدهش، سار في الدهليز الفسيح المكسوة أرضه ببلاط مربع فكان لوقع أقدامه صوت مسموع ، المطبخ أمامه غارق في الصمت ، لا تصدر منه نأمة ، ها هو ذا الجدار الذي يظهر فيه على ارتفاع كبير بروز يتألف هيكله من خشب خام ولكنه مدهون بعناية واتقان ، هذه هي حجرة الخادم ، لا سبيل الى الصعود اليهما الا باعتلاء درجات دائرة متتابعة كدرجات سلم ، وهذا المطلع تستغل به حجرة الخادم ، فليس في الدهليز مدخل لسلم آخر ، ولكن لا أثر لأثاث الدهليز — الدواليب الكبيرة والصناديق المحلاة بنقش بارز وشرع طونيو كروجر — ابن هذه الدار — يتسلق السلم الفسيح ، لشد على درابزين من خشب محلى بنقش غائر ومدهون بطلاء أبيض ، وكان اذا صعد درجة رفع يده عن الدرابزين ليعيد وضعها عليه وهو يصعد الدرجة التالية كأنما يحاول بتهيب أن ينشأ من جدب بينه وبين الدرابزين المتين رغم شيخوخته هذا الألف القديم الذي كان بينهما في أيام خلقت، وحين بلغ باب الطابق الأول نوقف عن الصعود اذ كان فوق الباب لافتة ببضء مكتوب عليها بخط أسود (المكتبة الشعبية) مكتبة شعبية ، شغل معنى هذه العبارة فكرة ، ما دخل الشعب وما دخل مكتبته هنا . . دفع الباب فسمع دوى صوت يهيب به (ادخل) فاطاع الأمر وقد أمنأ قلبه بالهواجس ، أجال بصره فروع ما حدث من انقلاب الحال ، الطابق مؤلف من ثلاث حجرات متتالية ابوابها كلها مفتوحة على مصاريعها ،

طونيو كروجج ١٦١

على طول الجدران أرفف من خشب أسود نصطف فوقها كتب مجلدة على نسق واحد ، وفي كل حجرة يجلس رجل غلبان وراء مسند من الخشب كأنه مكتب ، منشغلا بكتابة كلام على ورق ، الرجلان الجالسان على بعد في الحجرة النائية والمالئة فقد رأهما لا يمنحانه الا نظرة خاطفة ، أما القريب منهم المشرف على الحجرة الأولى فقد نهض باندفاع من جلسنه واعنمد بيديه على سطح المكتب ومد رأسه الى الامام وكور فمه ورفع حاجبيه وأخذ بجدق في الزائر القادم ، قال له طونيو كروجج دون أن يسترد نظرتة الدائرة على رفوف الكتب :
— عفوا ، اننى غريب عن هذه المدينة ، جئت لزيارتها ، أهنا اذن مقر المكتبة الشعبية ، انسمح لى أنلقى نظرة على محتوياتها .

أجابه الموظف وعيناه تطرفان بسرعة أشد :
— بكل تأكيد طبعاً ، الدخول هنا بالمجان ، نخرج على راحتك ، هل تريد قائمة الكتب ؟

— شكراً ، سأعرف بسهولة أين أبحث عن طلباتى .
وأخذ يمر امام الرفوف زاعماً أنه يقرأ بتمعن أسماءها المطبوعة على الأغلفة ، وأخيراً تناول كتاباً وفتحه تحت ضوء نافذة وقف بالقرب منها . هذه هي الحجرة التى كانوا يتناولون فيها وجبة الفطور لا فى حجره الأكل الكبيرة فى الطابق الأعلى ، وهى مزينة بصف من تمانيل بيضاء لأرباب الأغبريق ، وكأن بياضها تنفنه زرقه كساء الجدران ، الحجرة السالية فى المكتبة كانت حجرة النوم ، هى التى ماتت فيها جدته لأمه بعد صراع مرير مع الموت رغم شبخوختها ، ذلك أنها كانت تحب الحفلات وتتعلق بالملذات وتتشبث بالحياة ومرة الأيام فاذا فى الحجرة ذاتها بلفظ أبوه آخر أنفاسه ، السيد المهيب المستمسك

طونيو كروجر ١٦٢

بالأصول ، المكتسى وجهه دائما بمسحة من الكآبة ودلائل
 انشغال الفكر ، كما لا تخلو عروة سترته من زهرة برية ،
 رقد طونيو عند قدمى الجثة ، عيناه ملتهبتان وقد أسلم
 قلبه بما وسعه الجهد والاخلاص ليغمره حبه لأبيه
 وحزنه عليه ، وركعت أمه أيضا بجانب الفراش ،
 أمه المتقدة العواطف ، تسيل الدموع من عينيها ، ثم
 اذا بها بعد وقت ليس بالطويل تقترن بهذا الفنان من
 أهل الجنوب وترافقه في رحلاته الى بلاد ذات سماء
 زرقاء ، أما الحجره الثالثة في المكتبة ، آخر الحجرات ،
 المزحمة الآن بالمطدات تحت حراسة رجل غلبان فقد
 كانت لوقت طويل حجرته الخاصة ، هي التي يأوى اليها
 اذا رجع من المدرسة بعد أن يقوم بجولة في المدينة كالتي
 قام بها اليوم منذ قليل ، في ركن من الحجره مكتبه ،
 في درج منه يخنى أوائل قصائده ، صياغتها فجأة بسبب
 اندلاق عاطفتها ، ولكن شجرة الجوز ، ما الذي جرى
 لها ، وجف قلبه فجأة ، وألقى بنظرة من النافذة ،
 الحديقة أصبحت خرابا ولكن شجرة الجوز لا تزال في
 مكانها ، ولا تزال أوراقها تخشخش في مهب الريح ،
 ترك نظرتة تلم من جديد بالكتاب الذي تحمله يده ،
 مخنارات من الشعر بعرفهما حق المعرفة ، مشت
 نظرتة فوق الأسطر السود يقرأ الشعر بيتا بعد بيت ،
 ينبثق من الكلمات فيض لفن رائع يتساعد بفضل وقوة
 الإبداع وبلوغه الذروة التي يحدث عندها فينا أثره بأن
 تشد قنضته علينا تم تطلقنا على نحو يبرهن به من
 جديد على براعته . أعاد الكتاب الى الرف وهو يقول
 في سره ، هذا شعر حسن ، ثم استدار فلحظ أن أمين
 المكتبة لا يزال واقفا وعيذاه تطرفان أيضا على نحو ينم
 أنه يهم بالكلام ثم يتراجع بنصيحة من شكوك يتداولها

طونيو كروجر ١٦٢

في ذهنه . قال له طونيو كروجر :
 — لديكم كتب قيمة ، القيت على الرفوف نظرة سريعة ،
 شكرا لك يا سيدى ، انى منصرف واستودعك الله .

ثم اتجه الى الباب ، لا يريه الا أن يخرج منه
 خلسة ، فقد كان واثقا أن أمين المكتبة سيظل برهة
 أخرى واقفا وعيناه تطرفان .

انقطعت الآن رغبته في متابعة اسنكشافاته ، يكفيه
 انه زار بيت الأسرة ، ففى الطابق الأعلى الذى يؤدى
 الى حجراته الفسيحة دهليز يزدان بالاعمدة يسكن أناس
 غرباء ، أدرك ذلك فقد رأى أن السلم انتهى الى باب
 نصفه من زجاج لم يكن موجودا أيام صباه وقد كتب
 فوقه اسم ما .

انصرف واجتاز الدهليز فرن فيه وقع خطاه وغادر
 بيت الأسرة ، وفى ركن مطعم بلع وهو غارق فى أفكاره
 طعاما غليظا دسما تم عاد الى الفندق . قال للمستخدم
 صاحب السترة السوداء :

— حققت رغبتي فى زيارة المدينة ، وسأسافر هذا
 المساء .

أمر أن تعد له فاتورة الحساب وعربة تنقله الى
 البناء ليركب السفينة البحرية الى الدانمرك ، ثم صعد
 الى حجراته وجلس الى المنضدة وظل فترة متجمدا فأدار
 ظهره مسندا خده الى كفه ، ملقيا الى السجادة نظرة
 تائهة ، وبعد ذلك دفع حسابه ورتب حوائبه وجاءه خبر بأن
 العربة قد وصلت فى الساعة التى حددها فاستعد للنزول
 وجد المستخدم صاحب السترة السوداء فى انظاره فى
 أسفل السلم قال له وهو يدفع بينصره كى تميصه
 فى ذراعى سترته .

طونيو كروجر ١٦٤

— لا تؤاخذنا يا سيدى اذا اضطررنا لاحتجاجك لبرهة وجيزة ، وان السيد سيهاس صاحب الفندق يريد أن يقول لك كلمتين ، هذا اجراء شلكى ليس الا ، انه وراء هذا الحاجز ، فقتضل واصحبنى ، انك لن ترى أحدا غير السيد سيهاس صاحب الفندق .

وقاده بحركات عديدة الى نهاية البهو حيث وجد السيد سيهاس فى انتظاره فعلا ، وطونيو كروجر يعرفه منذ صباه ، رجل قصر بدين ، مقوس الساقين ، شعره القصير الذى يزحف الى صدغيه قد دب فيه الشيب ، لا يزال يلبس كالعهد به من قديم قننوسة من صوف أخضر ، لم يكن وحده ، بجانبه وأمام درج للكتابة مثبت بالجدار وقف شرطى له خوذة تعلق رأسه ، ويده اليمنى من داخل القفاز الأبيض تضغط على ورقة مكتوبة بحبر متعدد الالوان موضوعة فوق سطح الدرج ، استدار الى طونيو وصوب اليه نظرة الشرطى الشريف الأمين كأنه يتوقع من طونيو أن يتمنى من وقع هذه النظرة أن تنشق الأرض وتبلعه .

نقل طونيو نظرتيه بين الرجلين وآثر الصبر والتريث الى أن يسمع ما يقولانه له .

أخيرا سأله الشرطى بصوت عريض وسرعة معتدلة:
— أقادم أنت من ميونيخ .

رد عليه بالإيجاب فعاد الشرطى يسأله :

— اذهب أنت الى كوينهاجن .

— نعم سأسافر الى مصيف على شاطئ البحر فى الدانمرك .

— مصيف على البحر ، طيب ، أرنا مستندات اثبات شخصيتك .

ونطق بكلمة « أرنا » بنغمة فوز عظيمة يسعده كل

طونيو كروجر ١٦٥

السعادة .

استغرب السؤال فأبعد شيء عن خاطره هذه المستندات التي نثبت شخصيته ، أخرج المحفظة التي يحملها في جيبه وفتشها فلم يجد بها الا قواطر تم سدادها وأوراقا من مسودات طباعة لقصة من تأليفه حملها ليصححها حين يستقر في المصيف . لم يكن معه مستند يثبت شخصيته ، انه يكره كل صلة بالسلطات الحكومية ولم يطلب منها قط ان تصدر له جواز سفر . فقال : — آسف ، اننى أتقل وليس معى مسندات تثبت شخصيتى .

أجابه الشرطى :

— آه ! اذن ما هو اسمك يا ترى . .

ذكر له طونيو اسمه فقال الشرطى وقد صلبت قامته فجأة واتسع منخراه الى آخر مدى :

— أهذه هي الحقيقة .

— نعم ، هذه هي الحقيقة .

— وما هى صنعتك يا نرى . .

ابتلع طونيو غصة حلقه وأبان عن صنعته بلهجة حادة قاطعة .

رفع السيد سيناس رأسه ونظر اليه باستغراب وتقال الشرطى وهو يتنحنح :

— اذن أنت تقرر بأنك لست هذا الرجل الذى اسمه . ونطق الشرطى باسم ولكنه تلثم ، فاسترشد بالورقة المكتوبة بجبر مختلط الألوان فاذا به ينجح بفضل تمهله فى نطق اسم عجيب فى تتابع حروفه وفى جرسه الرومانسى الذى يتجمع فيه — كأنما للمعابثة — جرس أسماء من شعوب متعددة ، لا عجب أن طونيو نسى هذا الاسم بعد لحظات قليلة ، واستطرد الشرطى يقول :

طونيو كروجر ١٦٦

— هذا الرجل تبحث عنه شرطة ميونيخ لأنه متهم بالنصب وجرائم أخرى ، ولعله هرب الى الدانمرك اذنت باقرارك لست هذا الرجل ..

— اقرار او لا اقرار .. لست هذا الرجل .
وهز طونيو كتفيه اعرابا عن ضيقه بهذا العبث .
فكانت لهذه الحركة وقع ملحوظ على الرجلين . فقال الشرطي :

— على رسلك ، لا تنس أنك لم تبرز لنا أى مستند تثبت لنا شخصيتك .

تأخذ السيد سيناس عاملا على تهنة الجو وقال :
— كل هذا الاستجواب ما هو الا اجراء شكلى ، لا شىء غير ذلك . ينبغى لك أن نذكر أنه موظف يؤدى واجبه المفروض عليه ، فحبذا لو استطعت أن تثبت لنا شخصيتك بمستند .

وصمت ثلاثتهم ، هل ينهى هذه الواقعة بأن يكشف لهم عن هويته ويقول للسيد سيناس أنه ليس نصابا ، مصدر رزقه مجهول ، ولا من رجال الفجر ، مولده فى عربة خضراء وانما هو ابن المرحوم السيد كروجر ، القتل ، انه من أسرة كروجر ولكنه لم يشعر برغبة فى الافصاح ، يكتفيهم أنه ذكر لهم اسمه ، فرجال الشرطة على كل حال مسئولون عن حفظ الأمن ، ولهم الحق فى استجوابه ، بل انه يقرهم عليه الى حد ما ، ولكن لماذا يخبرهم عن أصله وفصله . ما جدوى ذلك ، هز كتفيه من جديد وألجم لسانه .

سأله الشرطي :

— وما هى هذه الأوراق التى وجدتها فى محفظتك .

— مسودات مطبوعة تنتظر التصحيح .

— كيف ، ذعنى أراها :

طونيو كروج ١٦٧

مد اليه الأوراق ، فردها الشرطى على سطح الدرج
وشرع يقرأها واقترب منه السيد سيناس يشترك معه
في القراءة ، وبقي طونيو بطل من فوق كتفيهما ليرى مدى
مضيئتهما في قراءة القصة وراهن أنهما بلغا فقرة صاعها
بتوفيق يتحقق به وقع الأثر المطلوب على القارئ ،
وشعر بالرضاء على نفسه وقال :

— تريان أن هذه القصة تحمل اسمى ، فبى من
تأليفى أنا وسننشر عما قريب ، أوضح لكم هذا الكلام .
قال السيد سيناس بلهجة قاطعة :
— طيب ، هذا بكفينا .

وجمع الأوراق وأعادها الى طونيو وقال للشرطى :
— هذا يكفينا يا بترسينى .
وكرر هذه العبارة بعزم وسرعة وعيناه نظرفان خلصة
ويهز رأسه دلالة على أنه رافض أن يقول أو أن يسمع
كلمة أخرى ، وأضاف :

— ينبغي أن لا نحتجز هذا السيد أطول من ذلك
فالعربة تنتظره ، واناشدك يا سيدى أن تغفر لنا
ازعاجنا لك قليلا ، ان الشرطى فعل ما فعلا بأدية
لواجبه المغروض عليه وقد نهته من فورى أنه يخلىء
الهدف .

لطنونيو سؤال يججم في صدره :
— أترانى أصدق كلامك ؟

أما الشرطى فقد بدا عليه أنه غير مقتنع بإيجابية
طونيو كل الاقتناع ، فأخذ يتحدث عن تحقيق ورد فيه
ذكر هذا الرجل النصاب وحمله لمستندات زائفة . وكان
السيد سيناز قاد سيفه عبر الدهليز وهو يكرر له
اعتذاره وسار معه بين تمثالى الأسدين الى حثت نقف

طونيو كروجر ١٦٨

العربة وقفل بنفسه بابها وهو يحيط طونيو بكل مظاهر الاحترام ، وقعقت العربة الحنطور المثرة للضحك بارتفاع سقفها واتساع بطنها وهي تتهادى بين صرير حديدها وارتجاج زجاجها. وسلكت الطريق المنحدر حتى بلغت الميناء .

هذه هي حكاية اقامة طونيو كروجر العجيبة في المدينة التي كان بها مولده .

الفصل السابع

كان الليل قد أرخى سناره وارنفع وارنفع القمر سابحا في ضوء فضى حين خرجت سفينة طونيو كروجر الى عرض البحر ، وقف في مقدمة السفينة مندترا بمعطفه بسبب الرياح التي اشدت هبوبها ، وخفض بصره ليغوص به في الأمواج الداكنة تجمع بين قوه البدن ونعومة الجلد ، تتواتب واحدة فوق أخرى ثم تتصافح في اصطفاق يعقبه تفرق في انجاهات غير متوقعة ، ينلأ الزيد فوقها فجأة ، ان نفسه كانت قد انكسرت قليلا للحادثة التي وقعت له في الفندق ، واين ؟ في بلدته ، مسقط رأسه ، أرادوا القبض عليه لانه نصاب ، ومع ذلك فانه يسلم بأن الذى حدث له كان له مبرر من بعض الوجوه ، ها هو ذا حين طلع الى السفينة أخذ — كما كان يفعل وهو سبى في سحبة أبيه — برقب البضائع المصدرة عند انزالها الى جوف السفينة العميق وسط صياح بحارة بمخلف لهجات أهل اسكاندبنافيا ، بضائع لانقنصر على بالات ومسناديق بل فيها أيضا نهر من البنغال ودب من القطب الشمالى ، كلاهما محبوس فى قفص عليه عوارض واقفال غليظة ، مألها ولا ريب الى سيرك فى الدانمرك ، تسلى بهذه المشاهد وتمتع بها ، وحين مرقت السفينة بين الشاطئين فوق مياه النهر كان قد نسى كل النسيان لقاء بالشرطى بترسون واستجوابه له ، أما ما حدث له قبل ذلك : أحلامه بالليل المليئة بالأحزان

٧ — لاعب الشطرنج

طونيو كروجر ١٧٠

والحسرات والجولة التي قام بها في بلدته ، مسقط رأسه ، وشجرة الجوز العتيقة — كل ذلك عاد الى ذاكرته واستولى على قلبه .

ينفصح البحر الآن أمام السفينة انه يبصر الآن هذا (البلاج) الصغير الذي طالما أنصت فيه وهو صبي لتمتمة البحر بأحلام الصيف وراقب منه لمعة الضفار وأضواء الفندق الذي كان ينزل به هو وابواه ، ها هي سفينته تمخر الآن في بحر البلطيق ، قاوم بادناء رأسه رياحا عنيفة مملحة تهب على الوجوه طليقة واتبه فوق العواثق ، تصك الآذان وتصيب الرؤوس بدوار لذيد وخدر خفيف ، فينسى المرء ما مر به من شرور وآلام وجرائر ، هذا هو حال طونيو ، كل ترق له كل عزم له ذاب في نشوة هذا الخدر الذي سرى في أعصابه ، يصل الى سمعه هدير الأمواج واصطفاقتها وتشنجاتها فيخيل اليه انه يسمع اشتداد خشخشة أوراق شجرة الجوز ، وصرير باب الحديقة ، وظل هكذا سارحا في افكاره وحلكة الليل تتكاثف شيئا فشيئا .

— ما أبهى النجوم يا ربى !

توجه اليه بهذه الكلمات صوت أجش وله غنة ، كأنه ينبعث من جوف برميل ، انه يعرف هذا الصوت ، هو صوت شاب يتراوح لون شعره بين شقره وحمرة ، جاءت جلسته الى مائدة الطعام بجواره ، ثيابه بسيطة ، أهدابه حمر ، له منظر رجل مشرق الطلعة ومقرور معا فكأنها عليه جلوه الخارج لتوه من الحمام ، حركانه تتم عن توتر أعصابه ومراقبته لنفسه ، يتناول كميات سخمة من الجمبرى المقلى بالببيض ، ها هو ذا يستند الى سور السفينة بجوار طونيو ويرفع بصره للسماء وهو يقبض على ذقنه بين ابهامه وسبابته ، هو لاشك

طونيو كروجز ١٧١.

في حالة طارئة عليه ، يميل فيها الى التأمل والاستعبار ،
ويجد عندها أن جميع السدود بين الناس قد انهدمت
وأن القلب بفيض بأشجانه ويبوح بها حتى للغرباء
وأن الفم ينطق بأشياء لو صدرت منه في غير تلك الآونة
لأحس من أجلها بخجل شديد .

— تأمل قليلا هذه النجوم يا سيدي ، ها هي ذى في
مواقعها تتألق وتنلأ وتتأثر حتى تملأ السماء ، قل لى
بريك ، حين يرفع المرء بصره الى السماء وهو مقتنع بأن
نجوما كثيرة حجمها أكبر من حجم الأرض مائة مره أفلا
يمتلئ قلبه بالخشوع والاسنعبار ، نحن سكان الأرض
قد اخترعنا التلفزيون والتلغراف وحققنا انتصارات العلم
في العصر الحديث ، نعم ، هذا حق ، ولكن حين نرفع
بصرنا للسماء لا يسمعا الا أن نقر ونعترف بأننا لسنا
سوى حشرات ، حشرات حقيرة ليس غير .

أحنى رأسه على صدره بعد رفعها للسماء ، دلالة
على خشوعه واستغفاره واستطرد يقول :

— نعم ، لسنا سوى حشرات .

وناجى طونيو نفسه قائلا : هذا رجل هيهات أن تكون
له سليقة الأديب ، ثم استعادت ذاكرته على الفور نصا
كان قد قرأه لأحد كتاب فرنسا يشرح فيه مفهومه للكون
والناس والوجود وقال في سره : ما هي في نظري الا
ثرثرة فارغة . . . أما عن ملاحظات جاره الشاب التي
انبعثت من أعماق قلبه واحساسه فقد اجاب عليها
بما وسعه واجب المجاملة ، ومضيا يتبادلان الأحاديث
وهما مستندان الى سور السفينة ، يمدان نظرتيهما الى
عباب ليل بهيم تتراقص عليه أضواء عابرة ، واتضح
أن الشاب تاجر من هامبورج يمضى اجازته السنوية في
هذه الرحلة الترفيهية وكان من كلامه لطنويو :

ملونو كروجر ١٧٢

— قلت لنفسى ، هيا ، جرب واركب السفينة الى كوينهاجن ، وها أنت ذا ترى اننى فعلت ، وكل الذى مر بى سرنى ، ولكن لا اظن أنهم احسنوا بتقديم طبق عجة البيض بالجبرى فى وجبة العشاء ، فستصادفنا عاصفة هوجاء هذه الليالة ، هذا هو ما قاله لى الريان بلسانه ومن حشا بطنه بهذا الطعام الغليظ سيكون منظره اذا قامت العاصفة مثيرا للمرثاء لا للضحك وحده .

نزلت هذه الثثرة الفارغة على قلب طونيو بردا وسلاما وشعر بعطف وود لحدثه وأجابه :

— نعم ، وجبات الطعام فى بلاد الشمال ثقيلة عادة ، ومن جرائرها البدانة والكآبة .

كرر الشاب وراءه كلمة الكآبة ونظر اليه باستغراب وسأله فجأة :

— أغريب أنت عن بلادنا .

— نعم ، اننى انتمى الى بلاد بعيدة .

وأرشف قوله بإشارة من ذراعه تنبىء عن البعد ولكن تترك مداه غامضا ، أجابه الشاب :

— حقا لقد صدقت فى حديثك عن الكآبة ، وأن هذه

الكآبة تركبني كأنما على الدوام ، وخاصة فى الليالى التى تماثل ليلتنا هذه ، حين تتلأل النجوم فى السماء .

واحتمل الشاب من جديد نقنه بين سبابته وابهامه ،

وناجى طونيو كروجر نفسه قائلا :

— لا ريب أنه لا يجد وسيلة للفضفضة بمكنون نفسه

الا بنظم الشعر ، ولكنه هو الشعر الذى ينلمه تاجر لا يخرج من يده الا أن يريق على الورق أحاسيس قلبه فى تعبير خام ، مباشر .

وتقدم الليل واشتد عواء الريح فلم يعد أحدهما يفلح

طونيو كروجر ١٧٢

في اسماع كلامه للآخر ، لم يبق الا الانصراف واللجوء الى الفراش ، هكذا فعلا بعد ان تبادلا تحية المساء .
 تمدد طونيو كروجر فوق فراشه الضيق في قمرته ، ولكن الراحة استعصت عليه ، أعصابه متوترة لأنثرها بعنف الرياح ولذع نقتها لخياشيمه ، وهصر قلبه تشوف فتمضى لاحساس وثيق يحل به فيسعده ، ثم ان رجة السفينة وهى تهوى من قمة جبل من الأمواج وتقعقة الرفاص وقد انفلت خارج المساء وتعبرى أصابه بغتبان وميل الى القيء ، فأتم من جديد لبس ملابسه وطلع الى ظهر السفينة . ليستنشق الهواء الطلق .

سحب تمرق أمام القمر ، والبحر يتراقص والأمواج لا تقبل مكررة متماثلة ، فالى مد البصر حتى نهاية الأفق وتحت نذبنة ضوء باهت مشهد بحر ممزق معذب تجلده سياطة خفيفة ، تتواهب منه السنة عملاقة كأنها السنة لهيب نار متأججة ، الأمواج تؤلف أشكالا مفرطة في تباين الرسم تتجاوز غرابتها كل خيال ، تعلو قمة وتطل منها على هوة سحيقة والزبد الأبيض كأنما يطوح به في كل اتجاه ذراع قوى جبار محب للمعابثة . والسفينة تتقدم بعناء شديد ، تشق طريقتها وسط الضباب وهى نئن وتترنج على الجنبين ، بتسنى له بين الحين والحين سماع زمجرة الدب والنهر المحبوسين في قفصهما في قاع السفينة من شدة عذابهما من العاصفة . ها هو ذا رجل يحتفى بمعطف من الجلد وغطاء يلف به رأسه ، يحمل فانوسا مربوطا الى وسطه يذرع سطح السفينة جينة وذهابا وهو يباعد بين ساقيه محافظا على توازنه بصعوبة ، وفي مؤخرة السفينة وقف الشاب القادم من هامبورج وقد تدلت رأسه من فوق سور السفينة وهو يعاني من دوار البحر عناء شديدا . وحين أبصر طونيو

طونيو كروجر ١٧٤

كروجر التفت اليه وقال بصوت خافت مُنخاذل :

— انظر يا سيدي الى بوره الطبيعة .

ثم ما لبث أن قطع كلامه واسندار ليحني رأسه من

جديد من فوق سور السفينة .

تعلق طونيو كروجر بجبل مشدود غاية الشد وأخذ يتأمل هذه العبوات المنجرة التي نطالعه بها الطبيعة ، فانبعثت منه صيحة جذل بدت له انها لقوتها قد طغت على هدير العاصفة واصطتاب الامواج ، كأنها ترنم قلبه بنشيد ينظمه للبحر يجلجل فيه حماس الحب ، يا بحر ، يارفيق الصبي ، ها نحن نلتقى من جديد، بحاول بهذه الكلمات أن ينظم نشيده ولكن نظمته انقطع ، لا خاتمة ولا شكل محدد له أنه ليس ابداعا متكاملا وليد تأمل في سكونة ، ذلك أن قلبه في تلك اللحظة كان لايشغله الا التمتع بالحياة .

مكث هكذا برهة طويلة ثم رقد فوق دكة من الخشب بجانب مرصد الريان وأخذ يتأمل السماء وضوء نجومها يلمع ويخفت ، حتى أخذته غفوة قصيرة ، رذاذ بارد من زبد الأمواج لفتح وجهه فأحس في تأرجحه بين اليقظة والنام كأن يدا رفيقة تربت عليه .

بدت للعيون شواطئ من سخور طباطسرية ننحدر صفحتها بخط مسنقيم فبدت نحت ضوء العمر كأنها تنتهي الى عالم الاشباج ، السفينة تقرب من جزيرة مصرية ، طغى النعاس من جديد على طونيو كروجر ، يستنقظ كلما خبط رذاذ مملح من زبد الأمواج صفحة وجهه فأنشد من وقعه جلده ، وحين أصبح في تمام اليقظة كان النهار قد أشرق بهواء منعش وضوء رمادي باهت ، وكان البحر قد هدأ ، وعلى مائدة العشاء التقى بالتاجر الشاب ورأى وجهه تطفي عليه حمرة الخجل طغيانا شديدا ،

طونيو كروجر ١٧٥

خجل ولا ريب لأنه كشف في مسر الظلام عن مكون قلبه ونطق بكلام يلام عليه لأنه قلده به الشعراء ، وأخذ الشاب يبرم شاربه الأشقر بأصابعه الخمس كلها ليرفع طرفيه ويرمى الى طونيو تحية متفضلة كأنها نحية الجند تنطق باعزامه أن يتجنب طونيو بعد ذلك بحرص شديد .

ونزل طونيو في الدانمرك ، وأقام في كوبنهاجن ، يمنح البقشيش لكل من بدا له أنه بسحقه ، وكان اذا خرج من الحجرة التي اسنأجرها في احد الفنادق تجول في المدينة نحو ثلاث ساعات وهو يسترشد بكباب دليل السياح الذي يظل يمسكه في يده مفتوحا فكان تصرفه تصرف رجل غريب بزور المدينة ويريد أن يتنفع من هذه الزيارة ما أمكنه ، أطلال النظر الى السوق الملكي الجديد وتأمل بتوقير أغلب الكنائس ووتف طويلا أمام التماثيل العريقة الرشيقة وصعد الى قمة البرج وزار في الريف قصور النبلاء القديمة وقضى ليلتين في ضاحية ريفولى الجميلة ولكن هذه المشاهد لم تكن في حقيقة الأمر كل ما وعته نظرتة ، إذ كان وهو بمر بمنازل بعضها يشبه المنازل العتيقة في بلدته تمام الشبه يطالع على أبوابها أسماء مألوفة له منذ صباه ، نتم في حساباته عن طباع رقيقة وخلال كريمة وتنكتم في الوقت ذاته أنبنا وبحسرا على نعيم عرفته في سالف الزمان ، يسبر مأملا ماحوله ، يسند وهو غارق في الفكر من هواء بحرى رطب أنفاسا طويلة تملأ رئتيه الوجوه التي كانت تتراعى له في أحلامه العجيبة المليئة بالحسرة والألم التي طافت به ليلة أن بانت أبان سفره في بلده موطن رأسه — هذه الوجوه يراها الآن من حوله ، العين لها الزرقه ذاتها والشعر له اللون الأشقر ذاته ، فهذه وبلك من جنس واحد ، متماثلة في استدارتها ، وكان يحب له وهو سائر في

طونيو كروجر ١٧٦

الطرقات أن تكفيه لحة من عين لعابر أو جرس كلمة ينطق بها لسانه لكي يرتج قلبه ارتجاجا عنيفا .
 هيهات أن يقوى على البقاء طويلا في تلك المدينة المرححة النابضة بالحياة إذ كان يننابه قلق وديع ومجنون معا بعضه من صنع الذكريات وبعضه وليد امل وترقب ، من أسبابه أيضا لهفته علي أن يباح له أن ينمدد براحة في مكان ما ، في شاطئء مصيف مثلا ، ثم يكف عن القيام بدور السائح التهم الى المعرفة .

ركب السفينة مرة أخرى فأبحرت به نحو الشمال تحت سماء ملبدة بالسحب وفوق مياه داكنة بل ويميل لونها الى السواد . ومرت بالقرب من زيلاند واتجهت الى مجينة هلسنجر ولم نكد قدمه تطأ الأرض حتى استقل عربة سارت به قرابة الساعة بحذاء البحر في طريق لا ينقطع ارتفاعه فوق الشاطئء حتى وصل الى هدفه ، عنده وحده صدق تحقيق مطمحه ، انه الفندق الصغير ، ذو الجدران البيض والنوافذ الخضر ، يقوم وسط محلة من بيوت واطئة متزاحمة وبرج الفندق بكسوته الخشبية يواجه البلاج وساحل السويد ، صرف العربة واحتل الحجرة الشرحة التي كانت محجوزة له وأخذ يستف متاعه في دواليها وقد اعتزم أن يقضى في هذا الفندق فترة من الوقت .

الفصل الثامن

كان شهر سبتمبر قد انتصف ، ليس في الفندق نزلاء عديدون ، تناول الوجبات في الدور الأرضي ، في حجرة الأكل الفسيحة ، سقفاها محمول على عروق متوازية ونوافذها الطويلة تنفتح على الشرفة المسورة بالزجاج والمطلّة على البحر ، تترأس المائدة صاحبة الفندق وهي امرأة عانس ، شعرها أبيض وانسان عينيها باهت لم يتجدد له لون ، وخداها عليهما مسحة وردية ، صوتها خافت ، وكلامها سريع كأنه زقزقة عصافير ، لا ينفك لها حرص على أن يكون ليدبها بجلدهما الأحمر فوق مفرش المائدة وضع حسن لا يكرها ، يزاملها رجل شيخ ، مدكوك الرقبة ، له لحية رمادية مقصوفة كلحية البحارة ووجه يميل لونه الى الزرقة الداكنة ، أنه تاجر أسماك من أهل البلد ، ويعرف الالمانية ، يبدو عليه أنه يعاني من ضغط الدم وأن الفالج يتهدده فانفاسه قصيرة متقطعة ، يمد بين الحين والحين سبابنه المحلاة بخاتم ثمين نحو أحد منخريه ليسده فيسلك أنفاسه في المنخر الآخر وهو ينفخها بقوة ولم يكن أقبل من هذا اهتماما وحفاوة بزجاجة الخمر الموضوعة أمامه سواء في غدائه وعشائه وفطوره ، لا نزلاء في الفندق سوى ثلاثة من الشبان الأمريكان ، كلهم طوال ، هم في سحبة أستاذ لهم دابه أن يعدل في تستر وضع

طونيو كروج ١٧٨،

فوق أنفه ، ويلعب معهم الكره طوال النهار ،
 لامبذه فثعرهم بين الحمرة والشقرة ، ينوسحله
 رق يقسمه على الجنبين بالساوى ، وجوههم
 ستنزة جامدة ، معرفتهم بلغة البلد مقنصرة على بضعة
 الفاظ ينسونها في كلامهم بالانجليزية لا للمشاركة في
 الحديث بل لاستقضاء مطالبهم على مائدة الطعام ،
 وهم لا يشربون الا الماء وهو غير ملج .
 لم يكن بهفو أن تكون له على مائدة الطعام محبة
 تختلف عن هؤلاء الشبان ، أمنعه أن يخلو الى نفسه
 في سلام ، ملقيا سمعه الى مخارج الحروف الحلقية
 في اللغة الدانمركية وما ينضمه أحاديث صاحبة
 الفندق وتاجر الأسماك من حروف مد بينه أو مستورة ،
 نوجه مرة أو مرتين بالكلام الى تاجر الأسماك وجعله
 مقصورا على حالة الطقس ، تم نهض ليعبر الشرفة
 الى الشاطيء الذى كان قد رقد فوق رماله بالنهار
 ساعات طويلة ، للجو هنا في بعض الأحيان سفاء
 لا يعهد الا في الصيف ، البحر ساكن كسول ، أملس
 السطح ، ملون هنا بصبغة بين زرقاء وخضراء ،
 ملون هناك بصبغة تميل الى الاحمرار ، تتراقص
 فوق مياهه أطراف أنسواء فضية ، الأعشاب البحرية
 ملقاة على الشاطيء وقد جفت ، ومجموعات من
 قنديل البحر طافية فوق سطح البحر ، في الجو شىء
 من رائحة عطن وعفن وشىء من رائحة القار المثللى
 به قارب السيادين الذى كان طونيو يسند اليه
 ظهره وهو جالس فوق الرمال على نحو ينيح انذلرته
 أن تمتد فترى البحر أمامها فسيحا دون أن تلقلها
 ويحنجزها شواطىء الدانمرك ، لا شىء يعنيه من
 هذا كله ما دام يملا رثبه بنسيم بحرى رطب لطيف،

طونيو كروجر ١٧٦

طاهر ، صاف .

واقبلت أيام داكنة ، أيام العواصف ، أحتت
الأمواج رؤوسها كالنور اذا استعد للنطح وانفجعت
في هياج الى الشبانىء تخبطه بعنف وتنحط عليه من
عل وتنثر فوقه الأعشاب والأصداف والحطام وعليها
لمعة البلب ، ووسط جبال الأمواج الشاهقة تحت
سماء ملبدة بالسحب وديان في خضرة باهتة يعلوها
الزبد ، على حين ترى العين هناك ، حيث تختفى
الشمس وراء السحاب يريق ضوء مخملى ابيض
وديح يكتسى به سطح البحر .

مكت طونيو برهة وهو واقف ، تلفه زمجرة
الرياح ، وبأسره تعقعتها التي لا تنقطع ، جلالة
للتعب والاجهاد ، للدوار وزلزلة الحواس ولكن أهـ ،
انه يجب ذلك كله ، استدار وانصرف ، بدا له ان
كل شيء يحيط به قد أخذ فجأة يريت عليه بحنان
وديح ، وعطف دافئ ، ولكنه يعلم أن البحر من ورائه
له نداء يلاحقه ، يضمه تحياته ووعوده ، كأنما سمع
هذا النداء بأذنيه فعلت شهفته ابسامة خفيفة .

قد رحلته الى قلب الدانورك عبر البرارى النى
يجثم فوقها جو من الوحدة والوحشة ، ووصل الى
غابات الباولا تتعالى اشجارها على السفوح وتنعاقب
للساعات بعيدة ، نلقته الغابات وكان يجلس على
الأغشاب ويسند ظهره الى شجرة بحيث يتراءى له
من بين الشجر جازب من البحر ، يحمل اليه الريح
أحيانا صوت اصطخاب الأمواج اتى تنكسر على
الصخور كأنه صدى سقوط الواح من الخشب بعضها
فوق بعض ، يوافيه من قوم الأشجار نعبق الغربان ،
أجش موحش ، يتكرر بلا تنوع ، يسند داونيو كتابه

طونيو كروجر ١٨٠

الى ركبتيه ولكنه لا يترا ، حتى ولو سطرنا واحدا ،
يمتعه ويسعده .

ان نعمة النسيان الكامل قد اخذته الآن بين
أحضانها ، يخيل اليه أحيانا أنه تحرر من قيود
الزمان والمكان وحلق في الجو طليقا ثم يحس— ولكن
في لحظات عابرة محسب — بالأم مفاجيء يهصر قلبه،
انها هبة قصيرة لأذعة لأشواق وحسرات راقدة ،
مبهمة في أعماق قلبه ، فلتيق هكذا ، مبهمة ، لانه
من فرط فتور همته وسرحان فكره لا يجد اقبالا على
بذل جهد لتحديد ماهيتها وتبين مصدرها .

ومضت أيام كثيرة على هذا النحو ، لو سئل كم
هي لما استطاع أن يجيب ، لا يبالي أنه لا يعرف
عدها ، الى أن جاء اليوم الذي حدثت فيه المصادفة،
حدثت اذ الشمس ساطعة واذ هو بين جمع من
الناس غرباء ، ومع ذلك فان هذه المصادفة لم تثر
في طونيو كروجر دهشة كبيرة .

بأن هذا اليوم بفجر يبشر ، بأن اليوم سيكون يوم عيد
وبهجة ، كانت لطنونيو يقنلة من نومه مفاجئة في ساعة
مبكرة ، واستيقظ فوجد نفسه فريسة توجس مبهم
لذيذ ، خيل اليه أنه يبصر امامه احدى الخوارق زينة
ساحرة من انوار عاوية حجرتا نطل منها على البحر
نافذتها وبابها الزجاجي ، يتدلى وسطحها ستار من
الدانتيل الأبيض فيجعلها قسامين : حجرة نوم
وصالون استقبال ، كسوة جدرانها من ورق في لون
هاديء ، وأنانها خفيف في لون فاتح فهي حجرة
يشعشع فيها الضوء ويعمها البشر ، الآن بدت لنظره
الخدره بالنعاس كأنها لم تعد تنتمي الى الأرض ، اذ
غمرها على نحو لا يصدق العقل نور وودي مهفهم

طونيو كروجر ١٨١

لطيف يجل عن الوصف ، خلخ على الجدران والاثاث صيفته الوردية واضفى على الستارة شيها لهد نار متوهجة الجمرات ، بلمس منها دفء لذيذ ، مكث هكذا برهة قبل ان يفهم سر هذا الذى يحدث امامه ، اذلقى بنظرة من خلال الباب الزجاجى فرأى ان الشمس قد طلعت فى عز بهائها . ايام عديدة مضت والسماء مليدة بالسحب والمطر غزير ، اما الآن فكانها ملاءة مشتودة ، لونها ازرق شاحب يتلألا صفاؤها فوق البحر وفوق البلد ، وها هو ذا قرص الشمس تعترضه او تحيط به كسف من سحب فى لون الورد او لون الذهب ، يرتفع بمهابة وجلال فوق البحر وقد توج بريقه فكانها سرت فيه رعشة وانتقاد ، هكذا بدأ اليوم .

وهب طونيو كروجر وهو حائر البدر وسعيد يلبس نيابه على عجل ، وتناول فطوره قبل الجميع فى شرفة حجرة الأكل ، وسبح فى البحر مسافة طويلة ثم مشى ساعة على الشاطئ ، ولما عاد ابصر حشدا من سيارات كبيرة تقف امام باب الفندق ودخل حجرة الطعام فلمح فى الدماون المجاور حيث البانوجمعا غفيرا من الناس ، تشهد ملابسهم بانتمائهم الى الطبقة البورجوازية الصغيرة ، هم جلوس حول موائد مستديرة يشربون البيرة ويأكلون الساندويش ويتحدثون فى حماس ، جمع هؤلاء من اسر باكلها ، فيها السفار والكبار ، ومعهم الاطفال ايضا . ومدت مائدة الطعام ، غنية بشرائح من لحم بين بارد مدخن ومالح وبين مشوى بنار الفرن ، فلما جلس طونيو كروجر البها سأل جاره عن هؤلاء الناس ، من يكونون . اجابه تاجر الاسماك :

طونيو كروجر ١٨٢.

— هم زوار من بلدة هلسنجر بيتغون النزهة وقضاء السهرة في الرقص ، ليكن الله في عوننا ، لن نهأ هذه الليلة بنوم ، اذ لا بد من دبدبة في الرقص وخبط على الطبل وستمند الهيصة ولا ريب الى مطلع الفجر .

هذا اجتماع بين أسر ، مرادها حفلة ونزهة معا ، انتهزوا فرصة اشراق الشمس وتقاسموا النفقة وجاعوا بالقوارب والسيارات . وبعد تناولهم طعام الافطار هنا سيخرجون لتسابعة النزهة ثم يعودون مع الغروب لقضاء السهرة في الرقص ، سترى يا صاحبي ، لن يغمض لنا جفن هذه الليلة ، اجابه طونيو كروجر :

— سنجد لنا شيئاً يبهجنا لحسن الحظ .

وانقطع الكلام برهة ، ربة البيت معنية بهيئة يديها المحمرتين على مفرش المائدة ، وتاجر الاسماك يسد منخارا وينفخ في منخار ، والشبان الامريكان ثابتة لهم وجوههم المكشرة وعادة شرب الماء غير مثلج، وفجأة وقعت المصادفة ، ها هو ذا هانزهانسن وهامى ذى انجه انجبورهولم يدخلان حجرة الاكل امامه، وكان طورنيو يميل بجذعه للوراء مستندا الى ظهر مقعده وقد سرى في بدنه خدر لذيذ بعد تعب سباحته في البحر ومشيته السريعة على الشاطئ ، وكان يأكل شريحة من سمك السالمون المدخن على شطيرة من خبز مقدد ، جلسته قبالة البحر ، وفجأة من خلال الباب المفتوح دخل الاثنان — وقد اشتبكت يده بيدها — في خطو غير متعجل كأنهما في نزهة ، هي كالعهد بها في دروس الرقص امام الأستاذ كناك، في ثوب ينحدر الى سف القدم ، فاتح اللون شفاف

طونيو كروجر ١٨٢

مزين برسوم الزهور ، تلف حول كتفها نليعة من قماش أبيض شفاف ترسم فتحتها مثلثا على الصدر يكشف عن رقبة في نضارة الشباب ، لفت على معصمها شرائط قبعنها وتركتها تتدلى من يدها ، ربما زاد جسدها نضجا عن ذى قبل ، لها الآن صغيرة بديعة دائره حول رأسها . أما هانزهانسن فهو هو لم يتبدل ، في زى البحارة ، معطف أزرق أزواره ذهبية ، ياقته الطويلة العريضة الزرقاء نهبط فنغطى كتفيه وظهره وكان يمسهك بده قلنسوته المماثلة أيضا لقلنسوة البحارة ويهزها من شرائطها ، وهو فارغ البال ، وأشاحت أنجه هولم انجبورج عينها اللوزيتين ، ربما لأنها وجدت شيئا من الحرج أن نطالعها أبصار الجمع المحتشد في حجرة الأكل ، أما هانزهانسن فقد ظل مصوبا الى المائدة نظرة تتم عن التحدى وأخذ يتفحص الجالسين واحدا بعد آخر على نحو فيه شيء من الاستخفاف والاستفزاز ، أطلق يد زميلته وزادت هزته لقلنسوته ليبدى لهم أى رجل هو ، وهكذا على صفحة يدها بحر أزرق تتراءى لعين طونيو كروجر مر الاثنان فاخترقا حجره الأكل من أولها لآخرها واختقيا خارجين من الباب المتقابل المؤدى الى الحجرة التى بها البيانو ، حدث هذا بعد الظهر بقليل .

نزلاء الفندق لا يزالون جالسين الى المائدة ولكن القادمين للنزهة الجالسين في الثرثرة والحجرة المجاورة هبوا من مقاعدهم ثم لم يدخل أحد منهم حجره الأكل بل غادروا الفندق من الباب الجانبى ووصلت الى الأسماع أصوات مزاحهم وضحكاتهم وهم يركبون السيارات التى انطلقت واحدة بعد أخرى على الطريق

وتراخى صدى ضجتها قليلا قليلا .

سأل طونيو جاره :

— هل سيعودون للفندق ؟

أجابه تاجر الأسماك :

— نعم وكان الله في عوننا ، قد اسنأجروا نفرا من

العازفين وسترى ماذا سيحدث لنا ، وأشد البلاء

بلائى لأن حجرتى تقع فوق بهو الرقص .

أجابه طونيو :

— تسلية ظريفة .

ستتاح لنا .

تم نهض وخرج .

أمضى يومه كيفية أيامه ، جالسا عند الشاطيء أو

في الغابة ، فانحا كتابا على ركبتيه وعيناه تطرفان

لقوة الشمس ، لا يدير في رأسه في يومه هذا الا

خاطرا واحدا ، هو ان الجماعة القادمة من المدينة

ستعود للفندق بعد النزهة للاشتراك في حفلة الرقص ،

كما توقع تاجر الأسماك ، صرف طونيو ذهنه عن كل

شغل الا ترقبه لهذه الحفلة ببهجة وتلف ممض لم

يعهده من قبل خلال سنى الموات التى مرت به ، حقا

لقد حدث له مرة بفضل تداعى أفكاره أن اتجه ذهنه

بعين الاحساس — ولكن خلال لحظة عابرة — الى

أحد معارفه القدماء ، الى القصصى أدالبرت الذى

كان يعرف ما يريده ، ويذهب الى المقهى ليهرب من

الربيع .

ولكن طونيو ما لبث أن طرح عنه هذا الخاطر وهو

بهز كتفيه استخفافا .

وحلت ظلمة المساء وطونيو كروجر جالس في حجرته ،

ماذا بالطريق المؤدى الى الفندق يزخر من جديد .

طونيو كروجر ١٨٥

بالحركة فقد عاد المساهمون في النزهة بل انضم اليهم — قدر ما من مدينة هلسنجر — رفقاء آخرون ، على الدراجات أو في السيارات ووصل الى سمعه صوت تجربة كمان وشبابة عزفها أخف ، كل الظواهر تدل على أن حفلة الرقص ستكون مملعة .

وبدا الأوركسترا الصغير عزف (مارش) ووصلت نغمته الرتيبة خافتة الى سمع طونيو كروجر ثم تلا ذلك لحن الرقصة المسماة بالبولونة افتتاحتا لحفلة الرقص ، وظل طونيو برهة جالسا في حجرته ينصت للموسيقى ، ولكنه حين سمع لحن رقصة (فالس) هض بهدوء وخرج من حجرته ، الطرقة التي يفتتح عليها بابها يخدمها سلم اضافي يؤدي الى باب جانبي للفندق ، يتيح الوصول الى الشرفة دون مرور باحدى حجرات الدور الأرضي ، سلك طونيو هذا الطريق بهدوء وتلصص كأنه يجوس خلال أرض محرمة ، يتحسس خطاه في العنمة ، أسلم قلبه كله لسحر هذه الالحن التي لها سداجة وهدده لذيذة وهي تصل الى سمعه واضحة جليسة . الشرفة خالية ومعتمة ، الباب المؤدى الى الصالون مفتوح ، والصالون يغمره نور منبعث من مصباحين كبيرين يوقدان بالبترول وتتضاعف قوته بفضل انعكاسه على مرآة مستديرة مثبتة في كل مصباح ، انسل من الباب ، وهو يمشي على أطراف قدميه يدغدغ أعصابه شعور بلذة التلصص والقدرة وهو محتم بالظلام على تتبع حركات الراقصين تحت الأنوار ، وتلهفت نظرتة على الظفر بمن جاء للبحث عنه .

اشتعلت الحفلة حماسا رغم أنها لم تبدأ الا منذ قليل ذلك أن المشاركين فيها قدموا اليها وهم مشحونون

طونيو كروج ١٨٦

أصلا بالحماس لها بعد ان قضوا يومهم والبال خال في صحبة لذيذة مع رفقاء بالفونهم وارفع النكليف بينهم . اذا مد طونيو عنقه قلبلا استطاع أن يرى حجرة البيانو وقد اجتمع بها عدد من رجال كبار السن يلعبون الورق وهم يدخنون ويشربون الخمر ، رجال آخرون جالسون على مقاعد كسوتها من القטיפه أما في حلقات مع أزواجهم أو في صف يحاذى الجدار ، لا صنعة لهم الا مراقبة الرقص ، يسند كل منهم كفيه فوق ركبتيه المنفرجتين وقد انفضت أوداجهم علامة على الرضى ، أما الأمهات فكل منهن تضع طاقيّة صغيرة فوق رأسها وتعتقد يديها فوق صدرها وتميل برأسها الى جنب ، كلهن منصرفات الى مراقبة أولادهن — زهورهن اليانعة — وهم يتفزون في الرقص ويدورون .

وفوق منصة أعدت بجوار الجدار وقف أفراد الأوركسترا ، بين الآلات نغير يبعث نفسه بحذر وبعد امتحان وحساب كأنه يهاب جلجلة الصوت التي اختص بها ، ومع ذلك فقد أدى بنجاح بعض النغمات . وانقسم أهل الحفل ، اما اشترك بين اثنين في الرقص قفزا ودورانا واما اشتراكهما والذراع في الذراع في مشية متراخية حول حجرة الرقص ، لا أحد يرتدى من الثياب ما يفرضه الاشتراك في حفلة رقص أصيلة ، انما الكل في ملابس يوم الأحد في الصيف حين يكون قضاؤه في نزهة خلوية ، فالرجال يرتدى كل واحد منهم سنرة أهل الريف ، يدل مظهرها أن صاحبها كان يبقيا طول الأسبوع مصونة ليوم الأحد ، أما الفتيات فكل منهن ترتدى نوبا فاتح اللون ، وفي خصرها صحبة من زهور برية وكان بين الحضور عدد من الصبيان الصغار فأخذوا يتراقصون بعضا مع بعض على هواهم

حتى حين ينقطع العزف . يفترق عن الحاضرين شخص هو بين الرجال نمط عجيب ، طويل الساقين يرتدى سترة حفلات الرقص الأصلية ، فهذه السترة ذيل يهبط الى الركبتين ، لاشك أنه من اعيان المجتمع في الريف ، فهو يتباهى بالمونوكل الذي يزر عليها احدى عينيه ، ويتسريحة شعر في خصلات ملتفة بفضل الكي ، لاشك انه يشغل منصبا هاما كمدير مكتب البريد مثلا ، واتخذ هذا الرجل سمة رئيس حفلة الرقص والمشرف عليها ، تحسبه تقمص شخصية هزلية مألوفة في الابد الدانمركي ، هو مسنجل ، يتصبب عرقا وكأنما خلق ليؤدي هذا الدور ، تحسبه يغطس ويقب في كل مكان في الحفلة ، يتباهى بانهماكه في السهر على النظام وهو يجوب البهو طولا وعرضا ويرفعه لجسده بمهارة حين يقف على أصابع قدميه ويخالف على نحو عجيب وضع حذائيه وهما مديبان ومن جلد لامع ، يرفع ذراعه في الهواء ويصدر أوامره ويشير الى الأوركسترا ليأخذ في العزف ، ثم يضرب يدا بيد ، كل هذا وشرائط الوشاح الضخم الملون المتبث حول كتفيه والمستحق له بسبب مكانته ودوره في الحفلة تهتز وراء ظهره ، أما هو فيلقى بين الحين نظرة اعجاب واعتزاز الى هذا الوشاح ..

لا مجال للخطأ ، عين الشخصين اللذين مرا من أمام طونيو كروجر عبر لوحة من بحر أزرق صامت هما بذاتهما يمثلان له الآن من جديد ، أحس بفرح ورهبة معا ، كان هانز هانسن أكثر الاثنین قريبا منه ، هو واقف بجوار الباب معتمدا بقوة على ساقيه وان مال جذعه الى الامام قليلا ، وكان يأكل بحذر من قطعة كبيرة من (الجاتو) مكورا كفه تحت نفته ليلتقط الفسات

طونو كروج ١٨٨

أما انجه هولم انجلبورج — انجه الشقراء — فكانت تجلس بجوار الجدار ، ها هو ذا صاحب الوشاح رئيس الحفلة يتقدم اليها مزهوا بنفسه ، وانحنى برشاقة متمعدة ، احدى يديه دارت واستقرت فوق ظهره واليد الأخرى رفعها بلطف ووضعها فوق صدره ، علامة على أنه يدعوها للرقص ، ولكنها هزت رأسها وأبدت اشارة تنم عن أنها في حاجة لاسترادا أنفاسها قبل ان تشاركه الرقص ، وانها تود أن تستريح قليلا فما كان من صاحبنا الا أنه اتخذ له جلسة بجوارها .

تأمل طونيو هذه الفتاة وهذا الفتى اللذين اذاقاه من قبل عذاب الحب ، هانز وانجه ، ما أشد تأثره بهما ، لايعود السبب الى تفرد بلامحهما الذاتية أو توحد ذوقيهما في الملبس بل الى شعوره بالفارق بينه وبينهما من حيث العرق والنمط هما من جنس واحد ، الشعر الأشقر والعين في زرقة النصل ، يتجمل لهفيهما كل ما تملكه الحياة من نقاء وسفاء ووثوق ، من تعال يجمع في آن واحد بين البساطة والكبرياء ، واخذ يراقبهما ، هانز في زى البحارة ، يبدو أكثر من قبل جراءة ومتانة ، عريض الكتفين ، مهضوم الخصر ، وانجه هولم انجلبورج تضحك وتهز رأسها بمرح تختس به ، تمد الى عنقها يدا كيد فتاة صغيرة ، لاهى مفرطة في الجمال ولا في الرقة على حين انحسر كمها الشفاف ، وفجأة هصر قلبه شجنا فخفق ، واذا به على غير وعى منه يتراجع ليختفى في العتمة حتى لا يشهد احد عبث العذاب بلامحه ، واخذ يحدث نفسه : هل تراني كنت نسيكما ، كلا ، محال ، هيهات ان اكون قد نسبت ، لا أنت يا هانز ولا أنت يا انجه هولم الشقراء

كان من أجلكما اقبالى على العمل ، فاشتغلت وكنت اذا سمعت تصفيق الاعجاب من المستمعين نلقت خلسة حولى لأرى هل أنتما بين المصفيقين ، أتكون يا هنز هانسن قد قرأت الآن دون كارلوس كما وعظنتى عند باب حديقة دارك لم أعد أطلبك بأن تقرأها ، فما يعنك أنت من أمر ملك يبكى لأنه وحيد ، ينبغي ألا ترهق عينيك وتطمس بريقهما من فرط العكوف على قراءة أشعار تبعث على الكتابة ، ليننى كنت مثلك ، فأبداً من جديد نشأة مثل نشأتك ، لى مرحك وبساطتك ومعيشتك الطبيعية المنتظمة فيحبنى السعداء والطلاق من الهموم ، لكنت اذن قد تزوجتك يا انجه انجبور الشقراء وكان لى منك وليد يشبهك يا هانز هانسن ، اذن لكنت عبيت من الحياة والبهجة والحب ، ناجيا من لعنة الكشف وعذاب الابداع ، تحيطنى ضروب من السعادة وأعيش كما يعيش أسوياء الناس ، ليتنى أبداً مرة أخرى من البداية ، ولكن لا جدوى من هذا كله ، اذ ستكون حياتى الجديدة كالسابقة التى عشتها ، سيحدث لى من هذه كل ما حدث لى فى تلك ، فمقدر على صنف من الناس أن يضلوا عن الجادة القوية التى يشقها ركب القافلة .

وانقطع العزف ، هى استراحة دارت خلالها المرطبات والمشهيات ، صاحب الوشاح تولى بنفسه حمل صينية ملأى بسلطة الرنجة المدخنة ، وأخذ يدور بها على السيدات ، بل ركع أمام انجه هولم انجبورج وهو يقرب الصينية اليهما مما جعل وجهها يتورد من فرط السرور ، وبدأ من فى الصالون يلحظون هذا الفتى الذى يرقبهم وهو واقف بجوار الباب ، التفتت اليه وجوه مليحة توهمت من الرقص واتجهت اليه نظرات مندهشة

طونيو كروجر ١٩٠

فاحصة واستقرت عليه ولكنه بقى مع ذلك فى مكانه ،
وطافت به فى عين الوقت نظرة من أنجه هولم وهانز
هانسن ، يكاد خلوها من المبالاة يشبه الازدراء . وخالطه
شعور بأنه يتلقى من جهة ما فى الصالون نظرة مهمومة
بالبحث عنه والعثور عليه فلما وجدته استقرت عليه ،
لفت رأسه وفجأة التقت عيناه بعينى من أحس بتصويب
نظرتها اليه ، هى فناة شابة ، واقفة غير بعيد منه ،
وجهها شاحب رقيق مستطيل ، لم ترقص كثيرا اذ لم
يتلف الشبان على مراقبتها ، كان قد رآها تجلس
بجوار الجدار ، وحيدة تزم شفتيها ، هى الآن أيضا
وحدها فى وقتها ، لها ثوب فاتح اللون مهتف كغيرها
من الفتيات ، يكشف عن كتفين لهما عظام بارزة وعن
رقبة نحيفة كأنما سقطت فى هوة بين كتفيها المتكودين ،
حتى لتبدو هذه الفتاة الصموت كأنما أصابها شيء من
قسوة الخلقة ، كفاها فى قفاز نصفى تبرز منه أناملها
وتتلامس فى رفق وهى تضعها فوق صدرها المسحوق ،
كانت تميل وجهها الى جنب وترمق طونيو كروجر بنظرة
تجلله من رأسه الى قدميه ، تنبعث من عينين سوداوين
غائمتين ، أشاح طونيو وجهه عنهما ، فهناك ، على
قرب منه ، يجلس هانز بجوار أنجه هولم ، يحسبه
الناظر البه انه أخوها ، تحيط بهما تلة من الشبان
لهم حدود موردة ، يأكلون ويشربون بين نثرثة ولهو
وتبادل معابشات بأصوات رائقة ثم يضحكون بملء
أفواههم ، أفغر قادر هو على الاقتراب منهم فمزاح
هذا أو ذاك عند خاطر فيكون جزاؤه — على الأقل —
ابتسامة ، كم يسعده هذا ، يود من كل قلبه أن يقدم
اليهم ، اذن لعاد الى حجرته وهو أكثر سعادة ، شاعرا
انه أقام جسرا صغيرا بينه وبينهم ، أخذ يردد فى ذهنه

طونيو كروجر ١٩١

— على سبيل التجربة — كيف يكون كلامه معهم حين يمازحهم ولكن هيهات أن تجسر نفسه على النطق به ، أذن سيكون الحال كما كان دائما ، لن يفهمه أحد منهم ، وإذا تكلم فسينصتون اليه بعجب واندھاشن لأن لفته غير لغتهم .

آن أوان العودة للرقص ، وبدا لصاحب الوشاح نشاط كبير ، أخذ يجوب الحجرة في عجلة ، يدعو الرجال الى مراقصة النساء وتولى بمعاونة الخدم ازالة المقاعد ورفع الاكواب لنهية المجال للرقص ، وأخذ يصدر أوامره للعازفين ويدفع في ظهور بعض الحائرين لعدم تجانسهم مع حلتهم ليخرجهم من ريكتهم ، بذل هذا النشاط كله من أجل الاستعداد للرقصة القادمة وهي رقصة رباعية ، فكان لابد له أن يقسم الجمع الى حلقات مؤلفة أربعا أربعا . . ولما استبان لطونيو كروجر أن الرقصة رباعية عادت الى ذهنه ذكريات قديمة فاحمر لها وجهه خجلا .

وعزفت الموسيقى وانقسمت الحلقات الرباعية زوجين زوجين يتواجهان ويتبادلان التحية بالانحناء . . وتوالت أوامر صاحب الوشاح للمراقصين . . رياه ، ان أوامره هذه المرة باللغة الفرنسية ، ينطق الحروف الألفية بتناقض شديد ، لا مثيل له ، هذا واتجه انجبورج رقص بالقرب من طونيو كروجر في الحلقة الرباعية الدائرة في رقصها بجوار الباب ، ها هي ذى أمامه نخطو وتسير ، وتلف وتدور ، الى اليمين واليسار ، الى الأمام والخلف ، من شعرها ونوبها الشفاف يصل اليه على تقطع عطر زكى ، فاذا به يغمض عينيه وقد استيقظ فبه احساس كان يالفة في تقديم الزمان ، احساس بسحر يستولى عليه برفق فبجده حلوا وبرا في آن واحد ، اما

طونيو كروجر ١٩٢

الآن فان مثل هذا الاحساس يطغى على قلبه ولكن لا يجد له هذه المرة الا لذة خالصة لا تقاوم ، ما حقيقة هذا الشعور ؟ هل هو الطموح ، هل هو الحنان ، هل هو الحسد والغيرة أم هل هو الاحتقار للنفس ، هل تذكرين رقصتنا يا انجى الشقراء وكيف سخرت منى حين زلت بى قدمى فهذا الجميع من تخبطى وعجزى ، هل تسخرين الآن من الشهرة التى بلغتها ، لا ريب أنك ستسخرين منى أيضا ، ولك حق الف مرة ، حتى ولو أبدعت عديدا من روائع الفن فلن تنقطع سخريتك بى ، وخطر بباله وهو يراقبها بيت من الشعر كان يأنس له فى وقت من الأوقات ثم نسيه منذ عهد طويل ، يقول هذا البيت :

أشتهى أن أنام فدعيني واذهبى أنت للرقص ، حلال لك ، كم هو خبير بهذا الاكتئاب الذى يستقطره أهل الشمال من هذا البيت من الشعر المتغلغل شجنه الى أعماق أعماقه . . نعم ، أن أنام ، أن يتحقق الطموح الى حياة بسيطة لا اعتماد لها الا على مشاعر لا تتحول قسرا وغصبا الى فعل وعمل ، الى تنفيذ ، الى رقص لا بد منه ، بل تكمن فى لذة وتكاسل بين جنبيه — فان كانت هناك رقصة لا بد له أن يهتم بالاستجابة الى الحاحها عليه واجبارها له على تأديتها بعناية كبيرة فما هى الا هذه الرقصة الخطيرة التى يتمثل فيها الصراع مع الفن دون نسيان كم هو مهين وسخيف أن ترقص والحب مستول على كيانك كله .

ونجاة انفلت عيار الرقص ودب فى الجمع حماس اهوج ، كانت الحلقات الرباعية قد انفست والفراراقصون والراقصات دائرة بالتماسك بالأيدي لتأدية رقصة تعتمد على الجرى ، يمرون امام طونيو كروجر

طونيو كروج ١٩٢

على وقع لحن يدفعهم للجري بسرعة جنونية والى اطلاق ضحكات عالية ، واشتبكت نظراته براقص وراقصه وهما يمران امامه ، للفتاة وجه شاحب رقيق الملامح وكفتان ضعيفان لهما عظام بارزة ، وفجأة نعثر الاثنان قبالتة وسقطا على الأرض أمام قدميه ، وكانت سقطه الفتاة من الشدة والعنف بحيث بدا ان اصابة خطيرة قد لحقتها، وكذلك زميلها ، لا بد ان اصابته بليغة أيضا ، لانه نسي زميلته كل النسيان وحاول أن ينهض وهو يدعك ركبتيه وتنطق ملامح وجهه بشدة ألمه ، أما الفتاة فكانما فقدت وعيها فهي لا تزال مرتمية على الأرض ، حينئذ تقدم اليها طونيو كروج وأمسك ذراعها برفق وأعانها على النهوض ، انها دائخة ، ذهولة ، تعسة ، ثم فجأة طغت مسحة وردية على وجهها الرقيق وتمتت له وهي ترمقه بعينيها السوداوين الغائمتين : أشكرك ، أشكرك كثيرا ، قالتها باللغة الدانمركية فأجابها بلطف :

— يحسن بك الا تعاودى الرقص يا آنستى ، ثم اصوب نظرتة من جديد اليهما ، الى انجه انجبورج وهانز هانسن ثم غادر الحفلة وعاد الى حجرتة ، من من نهش الحسرة لقلبه تملكه اعياء شديد ، انهكتة هذه البهجة الصاخبة التي لم يشارك فيها ، هذا هو العهد به دائما ، يقف في ركنه منعزلا ووجهه يتوهج من أثر الحمى التي تسرى في دمه ، متحصرا على أنه مختلف عن هذا الجنس الأشقر السعيد المتفجر بالحياة ، الممتع بها ، نم ينصرف عن ركنه بهدوء ، كان يتوقع بوثوق أن يسعى اليه انسان ويقبل عليه ، أن تلاحظ انجه انجبورج انصرفه فقتسل من بين الراقصين لتلحقه وتضع يده على كتفه وتهمس له : عد وتمتع وكن سعيدا فاني أحبك . ولكنها لم تأت اليه قط ، كلا ، مثل هذه الأشياء لا تحدث

طونيو كروجر ١٩٤

أبدا ، نعم ، حاله الليلة كحالها دائما فيها مضي ، وهو الآن بحاله سعيد ، كما كان سعيدا بحاله من قبل ، لأن قلبه بقيت له حياته ، ولكن ما هذا الذي حدث له وهو يعبر الجسر بين ماضيه وحاضره فجعله على الحال الذي هو عليه الآن ، أسكنانة لها برودة الثلج ووحدة واننباه كاشف وتكريس النفس للفن ولا ريب .

خُلع ملابسه ورقد وأطفأ النور ، يهمس لوسادته باسمين ينتميان الى الماضي وبكلمة شكر من قلب طاهر سمعهما بلغة أهل الشمال في هذه الليلة ، تتمثل له فيها كل الذي اختص به طبعه من حب صادق أصيل وتطلع الى النعيم ، تتمثل له فيها معنى الحياة وبيت الأسرة ، معنى العواطف البسيطة الصادقة التي تستولى على القلب .

استعرض بخياله ماضيه منذ مغادرته لمسقط رأسه الى يومه هذا فتنكر المامة الوضع بمغامرات الحواس والأعصاب والفكر ورأى نفسه قد سحقها انتقاد الذهن وتأمل الذات ، نهشها وأثلها قدرة البصرة على النفاذ للبوطن ، ضعفتها تراوح الثلج والجهر عليها في لحظات الابداع الفني ، هي عاجزة وضيعة ، يكرهها وعى لها بأن الحدود القصوى تتجاوزها فهي تتخبط بين تقشرف الورع وبذخ الشهوات ، استوعبها تأنق ذوقها فافنقرت واستهلكها ضروب من الجذل عقيمة وحرارتها كاذبة مصطنعة ، فأصبحت هذه النفس ضاللة ، منبوذة ، معذبة مهيضة الجناح عليلة . . حينئذ بكى من شدة الحسرة والندم .

هنا في حجرته في الفندق سكون وظلام ، يبلغ أذنه في ذغوت لحن رقصة الفالس كأنها تهدهد تفاهة الحياة .

الفصل التاسع

وفي بلاد الشمال انشغل طونيو كروجر بكتابة خطاب الى صديقته ليزافينا ايفانوفا حسب وعده لها بأن يوافيها بأخباره .

عزيزتى ليزافينا .. أمد بصرى من بعيد اليك وأنت سعيدة في مرفأك الأمين كأنه الجنة على الأرض ، والذي سأعود اليه عما قريب ، اليك برسالة لا تغنى ولا ريب عن الخطاب الذى كنت أود أن أكتبه لك ، فهى أذن لن ترضيك ، ففى عزمى أن أجعلها مجزلة بلا تفاصيل ، لا لأنه ليس لدى ما أحكيه لك ، بالعكس ، مرت بى حوادث أعدها من قبيل التجارب التى تعجم عودنا ، مثلاً ، كادت الشرطة تقبض على ، وأين ، فى بلدى ، مسقط رأسى ، ولكن سأروى لك ذلك شفاها حين نلتقى .

يحدث لى الآن أن تمر بى أيام يكون فيها الكلام باجمال أفضل عندى من الكلام بالتفصيل ، ولعلك ياليزافينا تذكرين الى اليوم وصفك لى ذات مرة بأنى بورجوازى خائب ، بورجوازى طائش سهمه ، ارتضيت أنت لى هذا الوصف ساعة أن اعترفت لك بأننى أحب الحياة .. هذا الشيء الذى أسميه بالحياة ، وسؤالى لنفسى الآن هل كنت ندرकिन حينئذ كم كنت يا عزيزتى قريبة أشد القرب من الحقيقة ، وأن هذا الحب منى للحياة التى أعيشها هو واتصاف بالبورجوازية شئ

طونيو كروجر ١٦٦

واحد لا انفصال فيه بين الاثنين ، وقد أتاحت لى رحلتى
أن أفكر فى هذه المسألة طويلا .
كان أبى كما تعلمين طبع أهل الشمال ، هو رجل
متين المبادئ متفكر ، مستقيم ، ميل الى الكآبة ، وأما
أبى التى تجرى فى عروقها دماء أجنبية مجهولة فامرأة
جميلة ، ميالة الى اللذة الحسية ، سانحة ، متقدة .
العواطف ، خلية البال دائما ، تجمع كل هذه الصفات
فى آن واحد ، وهى فوق ذلك ذات طبع متقلب ، والجمع
بين هذين النمطين المتعارضين كان خليقا بأن يؤذن
بسلالة تنشذ عن بقية السلالات اما رقيا أو انحطاطا ،
وكانت ثمرة هذا الجمع بين التقيضين فتى بورجوازيا
ضل سبيله وطاش سهمه فلم يجد له حى الا فى معبد
الفن ، بوهمى الطبع ، طموحه أن تكون له معيشة
محترمة يقرها المجتمع مع أنه فنان تعذبه عقدة الشعور
بالذنب ، فلاشك أن ضميرى الذى تتحكم فيه أعراف
البورجوازية هو الذى يجعلنى أرى الحياة الفنية بكل
ما فيها من جنون وعبقرية جديرة بكل ارتياب واستنكار ،
وهذا ما يجعلنى أحس بضعف وود نحو الانسان البسيط
الطيب المريح بتجرده من الشذوذ ، وبأنه من أوساط
الناس ، انسان محترم وان كان لا موهبة له ، اننى
أقف بين عالين ولا أنتمى لأى منهما وهذا هو سبب الألم
الذى أعانيه ، أنتم معشر الفنانين تحكمون باننى عضو
أصيل فى المجتمع البورجوازى فى حين أن هذا المجتمع
البورجوازى حكم باننى دخيل عليه حين أراد أن
يسجنى ، وأن ، فى بلدتى ، مسقط رأسى ، هذا هو
حكمكم وهذا هو حكمه ولست أدرى بأى الحكيم أنا
أشد شقاء ، البورجوازيون أغبياء ، نعم ، ولكن أنتم
الذين تعبدون الجمال وتحسبوننى بليد الإحساس مجردا

طونيو كروج ١٩٧

من الطموح ينبغي لكم أن تدركوا أن انسانا يصدق
 اتصافه بأنه فنان بفضل طبع تغلغل في أعماقه فرضته
 أرومته وأقداره — يكون له مع ذلك ميل الى الايمان
 بأن لا شوق من حيث المتعة والقيمة يفوق شوقه الى
 الحياة البسيطة التي يألفها عامة الناس . اننى شديد
 الاعجاب بهذا الصنف من الناس المتكبر البارد الأعصاب
 الذى يحترق البشر ثم هو مع ذلك لا يهاب المغامرة في
 الطريق المؤدى الى قمة يعانق فيها الجمال الفذ الجهنمى،
 فعندى أن الشرط الذى يتوقف عليه ارتقاء الأديب الى
 قمة النسر هو ابتلاؤه — مثلى — بحب بورجوازي
 للبشر ، للاشياء المعتادة البسيطة ، هذا الحب هو
 مصدر الدفاع والطيبة والفكاهة ، أعنقد أن هذا
 هو عين الحب الذى قالوا عنه ان فاقدته وان تكلم بكل
 لغات البشر والملائكة لن يزيد صوته عن نفخ بوق
 أو رنين صاجات ، وأقول لك أن كل انتاج لى الى اليوم
 لا قيمة كبيرة له ، ولكنى سأحاول الاجادة ، هذا وعد
 منى لك ياليزافينا ، وصلنى هدير البحر وأنا أكتب لك
 الآن فأغمضت عيني لكى بجوس نظرتى خلال عالم لم
 يولد بعد ، ولم يتشكل بعد ، عالم بطلب أن يجد
 نظامه وشكله ، فاذا بى أرد البصر حسيرا عن أشباح
 لشخص بشرية تقبل على وتناشدنى أن أقضى على
 الطلسم الذى يمنعها من الازنداد الى عالم الاحياء فيها
 أشباح مأسوية وأشباح هزلية ، وأشباح مأسوية هزلية
 فى آن واحد ، وهذه هى أكثرها جذبا لى ، ولكن أخفى
 وأعقب حب لى هو حبنى للجنس الأشقر الشعر الأزرق
 العين الذى يجد السعادة كلها فى معيشة بسيطة حلوة
 مألوفة ، ولا يكن لك ياليزافينا ازدراء بحبى هذا ،
 فانه شهى ومثير ، وينطوى على أشواق تهصر القلب
 وحسرة مغلقة بالاكتئاب ولكن هذا الحب هو السعادة
 التى لا حد لظهرها .

التوزيع في ج. م. ع : مؤسسه الاهرام
التوزيع في جميع الدول العربية :
الشركة الشرقه للنشر والتوزيع بيروت - لبنان

مطابع الاهرام التجارية
رسم الانداع بدار الكعب
١٩٧٣/٤٦٦٤

12

Bibliotheca Alexandrina



0388077

الثلث في ج ٠ م ٠ ع
عشرة قروش